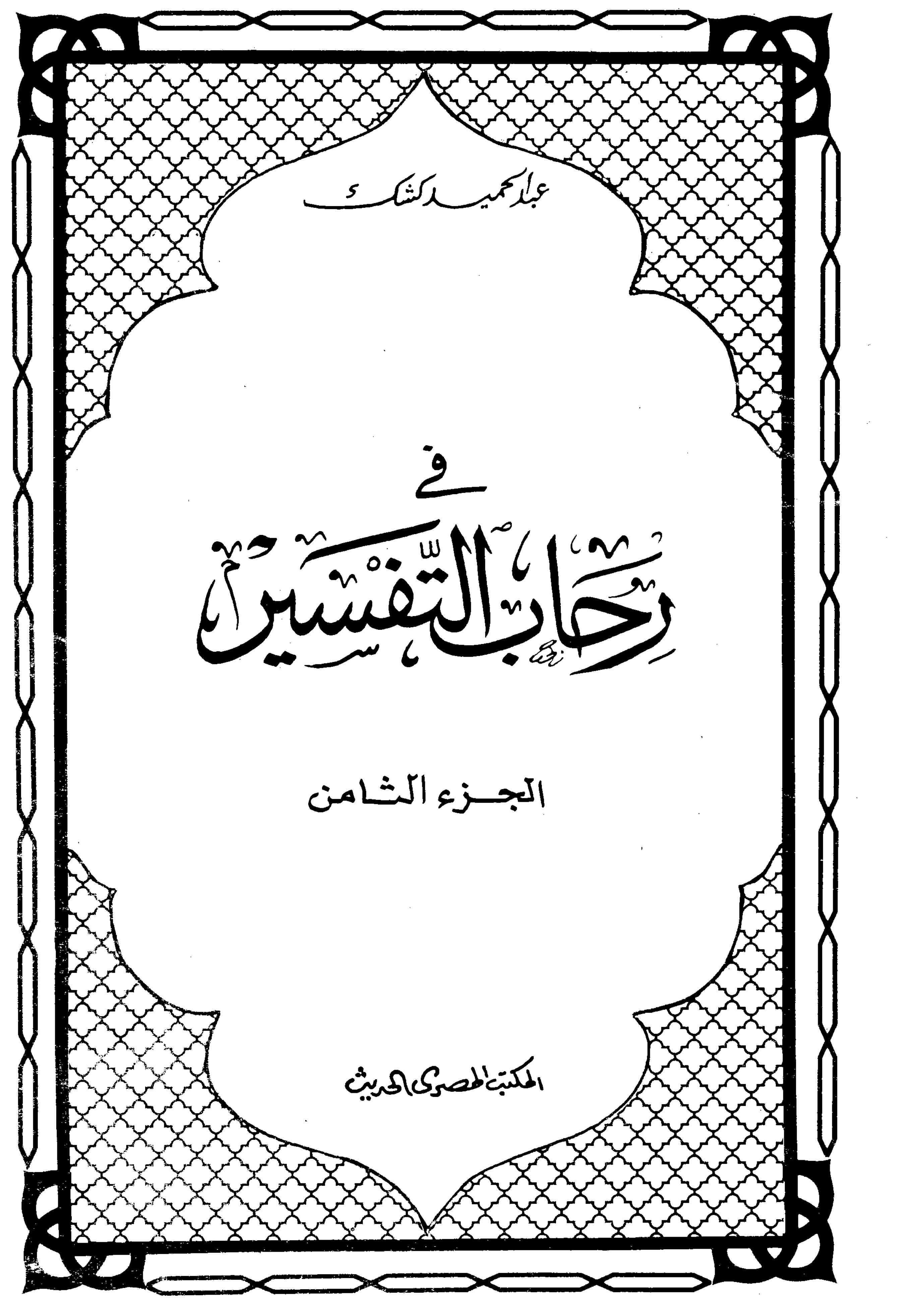

عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء الثامن
المكتب المصري الحديث

الإصرار على العناد بالباطل

* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ **وحشرنا** ﴾ : جمعنا . ﴿ **قبلا** ﴾ : جمع قبيل كرغيف ورغف ، أى ضمناء وكفلاء ، وقبلا أى مواجهة ومقابلة ، ومنه قيل : قُبُل الرجل ودبره ، وقرىء قِبَلا أى عياناً ومواجهة . ﴿ **شياطين** ﴾ : قال ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان (**يوحى**) الإيحاء الإعلام مع الخفاء والسرعة كالإيماء والمراد ما يوسوس به الشياطين من الجن والإنس . ﴿ **زخرف** ﴾ : الزخرف الزينة ، ومنه سمى الذهب زخرفاً ، وجعل تمويههم زخرفاً لتزيينهم إياه . ﴿ **غروراً** ﴾ : خداعاً باطلا . ﴿ **ولتصغى** ﴾ : صغى إليه مال وصغى فلان وصغوه معك ميله وهواه . ﴿ **وليقترفوا** ﴾ : اقتراف المال اكتسبه ، والذنب اجترحه .

روى عن ابن عباس أن النبى ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم . أحق ما تقول أم باطل ؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت الآية . وهذا تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » مع تسلية النبى ﷺ بذكر طبائع الناس ، وما يلاقيه الأنبياء فى دعوتهم .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة ، كما قالوا : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾[1] ولو كلمهم الموتى بأن نحييهم لهم ، فيخبروهم بما رأوا من ثواب وعقاب كما قالوا : ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾[2] . ولو أنا حشرنا عليهم ، وجمعنا لهم من كل شىء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى معاينة ومواجهة ليكون ذلك دليلا على صدق دعواك ، أو جمعنا عليهم كل شىء ضمناء وكفلاء بصفة ما بشرنا به وأنذرنا ، لو حصل كل هذا ما كان من شأنهم الإيمان ، ولا كان استعدادهم يقتضى ذلك ، لأنهم ينظرون إلى الآيات نظرة تعنت وعداوة ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فلم ينظروا إلى الآيات نظرة جزئية للهداية ، والعبرة حتى يتعظوا ويؤمنوا ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن

---

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٣٦ من سورة الدخان .

يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾[1] لكن لو شاء الله إيمانهم لآمنوا : ولكنه يتركهم وفطرتهم التى تتنافى مع سلوك طريق الخير والانتفاع بهدى القرآن ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[2] مع تبصرتهم وهدايتهم إلى طريق الخير والشر ﴿ وهديناه النجدين ﴾[3] .

ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك فيقسمون بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية مما اقترحوا ليؤمنن بها ، وما يشعرون بقلوبهم وما انطوت عليه ، وبما ختم عليها حتى صارت كأنها من أكنة ، وقيل : ولكن أكثر المسلمين يجهلون نفوس الكفار وما هى فيه ، فيميلون إلى إنزال الآيات المقترحة عليهم يؤمنون . وهكذا سنة الله فى الخلق . منهم مهتد وكثير منهم فاسقون ، لا يرجعون إلى صوابهم أبدا ، وهكذا سنته مع أنبيائه جعل لكم منهم أعداء من الجن والإنس خصوصاً أولى العزم منهم ليعظوا بدرجات الصبر والعمل ، فالنبى ﷺ يدعو إلى الخير جاهداً ، والمشركون يدعون إلى الخير كما يزعمون جهدهم ، فمن باب تنازع البقاء لابد من حصول العداوة والبغضاء والعاقبة للمتقين ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾[4] . كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبى جاء قبلك **أعداءهم شياطين الإنس والجن** ، روى أبو ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له عقب صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت يا رسول الله : وهل للانس شياطين ؟ قال نعم : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ الآية[5] » وقال مجاهد وقتادة والحسن أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، أما **مظهر عداوة هؤلاء للنبى والمسلمين فإنه يوحى بعض شياطين الجن إلى بعض شياطين الإنس وكذلك يوحى بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض وعن مالك بن دينار ، أن شيطان الإنس أشد علىَّ من شيطان الجن ، إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى عياناً .**

يوحى بعضهم إلى بعض بالقول المزخرف المزين ، وبالوسوسة وبالإغراء بالمعاصى والتمويه والخداع بالباطل ، ولو شاء ربك ما فعلوه أبداً فذرهم وما يفترون ، يفعلون هذا ليغروهم بالفساد ولتصغى إليه قلوب الكفار والفُسّاق . فإنها تميل إلى الشر وتجنح إلى الفساد ، لأنه الموافق لإهوائهم ، وليترتب على ذلك أن يرضوه ويطمئنوا إليه وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصى ما هم مكتسبون .

الشهادة للنبى ﷺ بالصدق

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٤) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١٧) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥) .

المفردات : ﴿ **حكما** ﴾ : الحاكم من يتحاكم إليه الناس ، ويحكم بينهم بالحق أو بغيره ، والحَكَمْ من يحكم بالحق فقط كما قال القرطبى . ﴿ **مفصلا** ﴾ : مبيناً فيه الحق إلى حد لا يحتاج معه إلى شىء خارج عنه والمراد هنا أنه كلمة الله وافية فى الإعجاز والدلالة على صدق الرسول . ﴿ **لا مبدل** ﴾ : لا مغير .

ما لكم تطلبون آيات الله حكما بيننا ؟ وليس لى أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزه إذ هو الحكم العدل ، وهو الذى أنزل إليكم القرآن كتاباً مفصلا فيه كل شىء مبينا لكل حكم ، جامعاً لكل خير ، فيه الهدى والنور ، والعلم والعرفان ، وهو المعجزة الباقية الدالة على صدق رسالتى لما فيه من الآيات ولما أعجز جهابذة البلاغة وأرباب البيان ، مع التحدى الصارخ لهم .. شهد لى بالصدق ، وعليكم بالكذب والبهتان ، والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى . يعلمون أنه الحق المنزل من عند الله مشتملا على النور والهدى ، ومتلبساً بالحق والعلم إذ هو من جنس الوحى الذى نزل عليهم ، وقد جاءهم فى كتبهم البشارة بالنبى ﷺ وصفته ، فهم أدرى الناس به ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرته منهم واهتدى .

والخلاصة أنكم تتحكمون فى طلب المعجزات والآيات الدالة على صدق الرسول ، وقد حصل ذلك بوجهين :

(ا) القرآن وهو المعجزة الباقية القائمة مقام قوله تعالى: [صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى] .

(ب) معرفة أهل الكتاب وشهادتهم للنبى محمد بالصدق .

فإذا كان هذا حاصلا فلا تكونن من الشاكين ، وهذا لون من ألوان التهييج والإلهاب كقوله «فلا تكونن من المشركين» .

وتمت كلمة ربك ، وقرئ كلمات ربك ، نعم تم كلام الله فلا يحتاج إلى شىء آخر وأصبح كافيا وافيا فى الإعجاز ، والدلالة على الصدق ، وقيل تمت كلمة ربك فيما وعدك به من النصر على الأعداء ، وأوعد به المستهزئين والكافرين من الخذلان والهلاك ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾[2] .

نعم تمت كلمة ربك صدقاً فيما أخبر به ، وعدلا فيما حكم به ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أعدل من الله حكما ؟

ثم كان كل ما أخبر جل شأنه من أمر ونهى ، ووعد ووعيد ، وقصص وخبر صادقا عادلا ، لا مبدل لكلماته ، ولا راد لقضائه فهو القادر على كل شىء ، الحكيم فى كل صنع ، السميع لكل قول ، العليم بكل حال ووضع سبحانه وتعالى عما يشركون .

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات ١٧١ – ١٧٣ من سورة الصافات .

إرشادات وأحكام

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

المفردات : ﴿ **يخرصون** ﴾ : يحدسون ويقدرون والخرص الحدس والتخمين،والخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين معه . ﴿ **فصَّل** ﴾ : بيَّن وأزال عنكم اللبس فى المحرمات . ﴿ **الإثم** ﴾ : القبيح وفى لسان الشرع ما حرمه الله . ﴿ **لفسق** ﴾ : معصية وخروج عن دائرة الدين .

قوله تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ هذا إخبار من العليم الخبير بواقع أهل الأرض فالأكثرية والأغلبية إن أطعتهم أضلوك عن سبيل الله وهذا كقوله جل شأنه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[١] ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[٢] ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٣] ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[٤] ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾[٥] ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[٦] وكقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٧] وكقوله جل شأنه ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾[٨] .

قال أحد الحكماء :

تعيّرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا إن قليل ودينن ... صحيح ودين الآخرين عليل

(١) الآية ١٧ من سورة هود .
(٢) الآية ٢٤٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٧١ من سورة الزخرف .
(٥) الآية ٧١ من سورة الصافات .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٧) الآية ١٣ من سورة سبأ .
(٨) الآية ٢٤ من سورة ص .

ثم يخبر جلت قدرته عن منشأ ضلال هؤلاء فيقول ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ فإتباع الظن يفيد عدم استقرار اليقين فى نفوسهم ، والخرص هو التخمين ، وكل من الظن والتخمين لا يفيد يقيناً ، إنما يفيد ظناً وتخميناً ، وإن الذى أخبر بهذا هو من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يقول سبحانه ﴿ **إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ فما دام ربك أعلم بحال هؤلاء فلا تتبع أهواءهم ، وتوكل على الله إنك على الحق المبين ، قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، فالعلم صفة انكشاف ،وهى صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، فبالعلم نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فقد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عددا ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .
قوله تعالى ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ فى هذه الآية إخبار من الله تعالى بإباحة الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها ، إن كنتم بآياته مؤمنين ، فكلوا منها دون ما خوف ولا حرج ، ولماذا لا تأكلون منها وأى شىء يمنعكم من ذلك وقد ذكر اسم الله عليها وقد شاءت حكمة الله تعالى وإرادته أن فصل لكم وبيَّن ووضح ما حرمه عليكم ، جاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾[(١)] وجاء فى ذلك قوله تعالى ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دنيكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾[(٢)] .

وفى الآية التى بين أيدينا وهى قوله تعالى ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ فى هذه الآية ما يفيد أن المضطر له أن يتناول من المحرم ما يبعد عنه الهلاك ء فإذا كانت الضرورات تبيح المحظورات فإن الضرورة تقدر بقدرها ، قال تعالى : ﴿ فمن اضطر فى مخمصة ﴾ أى جوع ومسغبة ﴿ غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ وقال جل شأنه ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾[(٣)] .

قوله تعالى ﴿ **وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين** ﴾ أى المتجاوزين لحدود الله وهم الذين أحلوا وحرموا حسب أهواءهم ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾[(٤)] .

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

وهم الذين سيبوا السائبة وبحروا البحيرة فأضلوا الناس بغير علم ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾[١] قال تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾[٢] .

وقال جل شأنه ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾[٣] قوله تعالى ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ قال قتادة : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ أى سره وعلانيته قليله وكثيره . وهذا كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[٤].

ولذلك حكم الله تعالى على من اقترف الإثم ظاهراً أو باطناً بقوله ﴿ **إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال « الإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه »[٥] .

قوله تعالى ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ وفى هذه الآية الكريمة أحكام شرعية نذكر تفصيلها عن العلامة ابن كثير ثم نذكرها ملخصة عن تفسير المراغى .

قال العلامة ابن كثير :

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبى ومحمد بن سيرين ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهرى ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد ابن محمد بن على الطائى من متأخرى الشافعية فى كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله فى آية الصيد ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾[٦] ثم قد أكد فى هذه الآية بقوله ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .
(٢) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .
(٤) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .
(٥) أخرجه مسلم فى البر (١٤ ، ١٥) . والترمذى فى الزهد (٥٢) . والدارمى فى البيوع (٢) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) وفى (٥ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦) .
(٦) الآية ٤ من سورة المائدة .

وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك »[(١)] وهما فى الصحيحين وحديث رافع بن خديج « **ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه** » وهو فى الصحيحين أيضا وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »[(٢)] رواه مسلم وحديث جندب بن سفيان البجلى قال : قال رسول الله ﷺ « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله »[(٣)] .

وعن عائشة رضى الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ! قال: «سموا عليه أنتم وكلوا»[(٤)] قالت وكانوا حديثى عهد بالكفر رواه البخارى .

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد . والله أعلم .

والمذهب الثانى فى المسألة أنه لا يشترط التسمية بل هى مستحبة ، فإن تركت عمدا أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعى رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح والله أعلم . وحمل الشافعى الآية الكريمة ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى ﴿ أو فسقا أهل لغير الله به ﴾[(٥)] وقال ابن جريج عن عطاء « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس ، وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو فى قوله ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ حالية أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقاً ، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله .

ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة ، لأنه يلزم فيه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقص عليه بقوله ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فإن عطفت

(١) أخرجه البخارى فى الذبائح (٢ ، ٣ ، ٧ - ١٠) . ومسلم فى الصيد (١ - ٣) . وأبو داود فى الأضاحى (٢٢) . والترمذى فى الصيد (١ ، ٦) . والنسائى فى الصيد (١ - ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١) وابن ماجه فى الصيد (٣)

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة (١٥٠) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤٦ : ٣) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأضاحى (١٢) وفى العيدين (٢٣) وفى الذبائح (١٢ ، ١٧) . وأخرجه مسلم فى الأضاحى (١ - ٣) . والترمذى فى الأضاحى (١٢) . والنسائى فى الضحايا (٤ ، ١٧) . وابن ماجه فى الأضاحى (١٢) .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد (١٣) وفى البيوع (٥) وفى الذبائح (٢١) . وأبو داود فى الأضاحى (١٣ ، ١٩) . والنسائى فى الضحايا (٢١ ، ٣٦ ، ٣٩) وابن ماجه فى الذبائح (٤) . والإمام مالك فى الذبائح (١) .

(٥) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

على الطلبية ، ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ قال هى الميتة . ثم رواه عن أبى زرعة عن يحيى ابن أبى كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به .

وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسى مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : « إذ ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقى أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً حديثى عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أنتم وكلوا » قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

والمذهب الثالث فى المسألة أن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحق بن راهويه ، وهو محكى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع وهذا الذى قاله غريب جداً وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعى والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناس فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ فى ذلك يعنى ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسى حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل ابن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « المسلم يكفيه اسمه إن نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله »

وهذا الحديث رفعه خطأ . أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزرى ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدى روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبى الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزادا فى إسناده أبا الشعثاء ووثقاه ، وهذا أصح ، نص عليه البيهقى وغيره من الحفاظ ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبى ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانا والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرا والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً فليعلم هذا والله الموفق. قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جبير بن يزيد قال سئل الحسن [سأله رجل] أتيت بطير كذا فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسى أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير فقال الحسن : كله كله ،

قال وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ .

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبى هريرة وأبى ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] وفيه نظر والله أعلم . وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى من حديث مروان بن سالم القرقسانى عن الأوزاعى عن يحى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى فقال النبى ﷺ « اسم الله على كل مسلم» ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقسانى أبا عبد الله الشامى ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم.وقد جاء فى تفسير المراغى مانصه فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ أى لا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ، ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم ، فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ **أو فسقاً أهل لغير الله به** ﴾ ثم لخص الأحكام فقال : قال مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر عمداً أو سهواً .

وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم وإن ترك نسيانا حل .

وقال الشافعى : متروك التسمية عمداً أو سهواً حلال إذا كان الذابح مسلماً .

قوله تعالى ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ أى وأن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم فى هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعبد لغير الله شرك ، كدعاء غير الله ، وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره ، وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ، ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية .

وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ، ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركاً ، وكذلك من يأكل الميتة بل يكون عاصيا إن لم يكن مضطراً .

قال عكرمة : وأن الشياطين يعنى : مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ، ليصل إلى نبى الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم

(١) أخرجه ابن ماجه فى الطلاق (١٦) .

يزعمون أن ما يذبحونه حلال ،وما يذبحه الله حرام ، فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال : ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ يعنى فى استحلال الميتة ﴿ **إنكم لمشركون** ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك لأنه أثبت مشرعاً سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم وهذا هو الراجح الذى عليه المعوَّل .

أهل الحق وأهل الباطل

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المفردات : ﴿ **أكابر** ﴾ : أكابر القوم رؤساؤهم . ﴿ **مجرميها** ﴾ : الإجرام ما فيه الفساد والضرر من الأعمال . والمجرمون الفاعلون لهذه الأعمال ﴿ **قرية** ﴾ : البلد الذى يجمع الناس كالعاصمة مثلاً . وقد تطلق على الشعب والأمة . ﴿ **يمكروا** ﴾ : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة .

قوله تعالى ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه** ﴾ المراد بالميت ميت القلب ، وهذا حال الناس قبل الهداية ، فإذا ما اهتدوا زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم ، فأصبحوا أحياء عندما تسرى فيهم روح الهداية ، ويجعل الله لهم نوراً يمشون به فى الناس ، وذلك كما قال جل شأنه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[1] ففى هذه الآية العظيمة وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه روح ونور وهاد .

روح يحيى الله به الموات ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه** ﴾ ونور يبدد غياهب الظلمات ﴿ **وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس** ﴾ وهاد يهدى إلى سواء الصراط إنه حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والهادى إلى الصراط المستقيم فاعجب معى لأمة ربها نور ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وقرآنها نور ، فأمنوا بالله ورسوله والنور الذى أرسلنا ونبيها نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[2] كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى غياهب الظلمات .

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى . (٢) الآية ١٥ من سورة المائدة .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة فما بالهم فى حالك الظلمات

قوله تعالى ﴿ **كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ليتبين به الفرق الشاسع والبون البعيد بين أهل الحق وأهل الباطل ، والمثل حال عجيبة يتبين بها الفرق بين من جاء المثل فى شأنه وبين غيره ، قال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون ﴾[٢] وقال تبارك اسمه : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٣].

قوله تعالى ﴿ **كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ أى مثل هذا الذى سبق ومن مثله فى الظلمات مثل ذلك التزيين الذى زين الشيطان به أعمال الكافرين فرأوا أعمالهم حسنة ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[٤] وقال جل شأنه ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[٥] قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها يمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى كما جعلنا فى قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾[٦] وقال تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾[٧] قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمراً قدرياً كما قال ههنا ﴿ **يمكروا فيها** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أكابر مجرميها يمكروا فيها** ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ قال سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وقال مجاهد وقتادة ﴿ أكابر مجرميها ﴾ عظماؤها قلت وهكذا قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[٨] وقوله تعالى ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على

(١) الآيات ١٩ – ٢٣ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٤ من سورة هود .
(٣) الآية ١٩ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٦) الآية ٣١ من سورة الفرقان .
(٧) الآية ١٦ من سورة الإسراء .
(٨) الآية ٣٤ ، ٣٥ من سورة سبأ .

آثارهم مقتدون ﴾[١]

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ ومكروا مكراً كبارا ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿ **وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾[٤] وقال ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾[٥]

صورة من عنادهم

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **صَغار** ﴾ : الصغار الذل والهوان ، والصغر القلة فى المحسوسات .

﴿ **أجرموا** ﴾ : ارتكبوا ما فيه جرم .

قوله تعالى ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[٦]

وقوله ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * **أهم يقسمون رحمت ربك** ﴾[٧] يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل فى أعينهم ﴿ **من القريتين** ﴾ أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسداً وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبر عنه ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾[٨]

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٢٢ من سورة نوح .
(٣) الايات ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٧) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف .
(١) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

وقال تعالى ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾[١]

وقال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[٣] هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل [أن يوحى إليه « الأمين »] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب قل هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا – الحديث بطوله الذى استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به. روى الإمام أحمد بإسناده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم »[٣] انفرد بإخراجه مسلم .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه »[٤] وروى الإمام أحمد بإسناده عن المطلب ابن أبى وداعة قال : قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال « من أنا » ؟ قالوا أنت رسول الله فقال: « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقه وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتا وخيركم نفساً »[٥]

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لى جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » رواه الحاكم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سىء »[٦]

قوله تعالى ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا فإنه سيصيبه يوم القيامة بين

---

(٢) الآية ٤١ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٠ من سورة الأنعام .

(٣) أخرجه مسلم فى الفضائل (١) . والترمذى فى المناقب (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧) .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٣) .

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩) .

يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا فى الدنيا.

كقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] أى صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى ﴿ **وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** ﴾ لما كان المكر غالبا إنما يكون خفياً وهو التلطف فى التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾[2] كما قال تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾[3] أى تظهر المستندات والمكنونات والضمائر وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان))[4] والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشوراً على صاحبه بما فعل .

أمارة الهداية وعلامة الضلال

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

المفردات : ﴿ **يشرح صدره** ﴾ : يقال شرح الله صدره فانشرح أى وسعه لقبول الإيمان والخير،وقيل الشرح الفتح والبيان وقيل هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب ﴿ **ضيقاً** ﴾ : ضد الواسع ﴿ **حرجاً** ﴾ : هو أضيق الضيق ﴿ **الرجس** ﴾ : العذاب وقيل الشيطان ﴿ **دار السلام** ﴾ : دار السلامة وهى الجنة .

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ من سورة الطارق .

(٤) أخرجه البخارى فى الجزية (٢٢) وفى الأدب (٩٩) وفى الحيل (٩) وفى الفتن (٢١) . وأخرجه مسلم فى الجهاد (٨ ، ١٠ – ١٧) . وأبو داود فى الجهاد (١٥٠) . والترمذى فى السير (٢٨) وفى الفتن (٢٦) . وابن ماجه فى الجهاد (٤٢) والدارمى فى البيوع (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١) وفى (٢ : ١٦ ، ٢٩ ، ٤٨) وفى (٣ : ٧ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦١) .

قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ أى ييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾(١) وقال تعالى ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾(٢). وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به**

وعن أبى جعفر رضى الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ أى المؤمنين أكيس ؟ قال « **أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً** »(٣) .

قال وسئل النبى ﷺ عن هذه الآية **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمارة** يعرف بها ؟ قال « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »(٤) .

قوله تعالى ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾

قال الشيخ المراغى : فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الاسلام الذى هو دين الفطرة والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك فى نفسه انشراحاً واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالته فتتوجه إليه إرادته ويذعن له قلبه بما يرى من ساطع النور الذى يستضىء به لبه وباهر البرهان الذى يتملك نفسه .

وسئل رسول الله ﷺ عن كيف يشرح صدره يا رسول الله قال: « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

قوله تعالى ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾ أى أن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد فى نفسه وصدره ضيقاً أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثله من صعد فى الطبقات العليا فى السماء إذ يشعر بضيق شديد فى التنفس وكلما صعد فى الجو أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء سبيلا إلى البقاء فإن هو قد بقى منها مات اختناقاً .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) . والدارمى فى المقدمة (٥٦) .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) .

وخلاصة ذلك أن الله ضرب مثلا لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مر على نزولها نحو أربعة عشر قرنا وتقدم فن الطيران الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات السفلى وأنه كلما صعد الانسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحيانا إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيرا جليا لأنهم لم يهتدوا لسرها وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم ومن هذا صح قولهم الدين والعلم صنوان لا عدوان وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

أى مثل ذلك الضيق والحرج فى صدور أهل الضلال نجعل الرجس والعذاب على الذين لا يؤمنون بالله رباً ، ولا الإسلام دينا ولا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وما ظلمناهم ولكنه كانوا هم الظالمين ، قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[1] .

وقال جلت حكمته : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[3] .

هذه سنة الله التى لا تختلف ولا تتخلف على مر الأعصار . واختلاف الأمصار . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾[4] ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾[5] ﴿ وهذا صراط ربك مستقيما ﴾[6] لا ترى فيه عوجاً ولا أمتا . ولا تعرجا ولا التواء ، ولا شذوذا ولا نشازا ولا انحرافا . إذ المستقيم أقرب صلة بين نقطتين . وهذا هو صراط الله .

ولقد علمنا الله كيف ندعوه فى سورة الفاتحة التى نقرأها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل فى صلواتنا ، فنقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[8] وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قد

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٦ من سورة الفاتحة .
(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

فصلنا الآيات لقوم يذّكرون ﴾[١] .

إن الذين اتبعوا هذا الصراط المستقيم قد اتبعوا هدى الله ، فوعدهم الله تعالى بوعدين : ألا يضلوا ولا يشقوا . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[٢] .

وهؤلاء لهم دار السلام عند ربهم والسلام ، اسم جليل وجميل يملأ النفس طمأنينة وسكينة ، وللكلمة رنين طالما اهتزت له أعواد المنابر ، ووصل إلى أعماق القلوب ، أليس السلام اسماً من أسماء الله عز وجل : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[٣] .

أليس اسماً من أسماء الجنة ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[٤] ثم أليس السلام تحية الله إلى حبيبه ومصطفاه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، أليس السلام تحية الإسلام : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أليس السلام تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ۞ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٥] ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[٦] .

والولايه هنا ولاية نصرة ومحبة ، ومن كان الله وليه لا يخيب سعيه ، ولا يضل سؤله ، ولا تتعثر قدمه ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٧] وما سمى الولى ولياً إلا لأن الله يتولاه بالحفظ والعناية :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۞ الذين آمنوا وكانوا يتقون ۞ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٨] .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وامدد يديك بحبل الله معتصما ... فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، يذكرنا الله تعالى به حتى نكون على حذر من أتباع الشياطين ، وكما علمنا أن القرآن قد أنزله الله مثانى ، فقد قرن الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، تكون حال المؤمن بين الرجاء والخوف .

---

(١) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .
(٣) الآية ٢٣ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٨) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

فبعدما حدثنا القرآن الكريم عن أنعمه تعالى على عباده المؤمنين ، وما أعد لهم من دار السلام ، وما أحاطهم به من ولاية ورعاية بعد ذلك ، عرض علينا مشهدا من مشاهد أهل النار فقال ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ﴾ اى اذكر أيها المخاطب هذه الصورة التى تمثلت أمامك ، إنها توحى إليك بجماعة كثيرة جمعت بين الإنس والجن ، وقد وجه الله تعالى إلى الجن هذا الخطاب : ﴿ **يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ أى أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾[1] .

وطرق الإغواء كثيرة متنوعة ، وشعب الضلال مختلفة ملتوية ، ومن ثم فقد جاءت الظلمات بصيغة الجمع لكثرتها ، وجاء النور بصيغة الإفراد لأنه الحق ، والحق لا يتعدد ، قال تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[3] وقال تبارك اسمه : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** ﴾ .

المراد بالاستمتاع هو انتفاع كل من الفريقين بعضهم ببعض ، فالجن استمتع بإغواء الإنس وإضلالهم ، والإنس استمتع بما أوقعه الجن فيه من الملذات ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وسيبرأ التابع والمتبوع كل من عمل الآخر . قال سبحانه : ﴿ **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعُوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾[5] .

إن استمتاع بعضهم ببعض يبدو جليا فى أن الجن قد أمروا ، والإنس قد عملوا ، ويوم القيامة تتجلى هذه الصورة فى ساحة الحساب : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[6] .

إن شيطان الإنس قد يكون شراً من شيطان الجن ، لذا جاء مقدماً فى قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ .

قال أحدهم :

---

(١) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .
(٢) الآية أولى من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٤) الآية الأولى من سورة إبراهيم .
(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

وقد أصدر الله تعالى حكمه على الفريقين فقال : ﴿ **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء** ﴾ وهذا حكم صادق عادل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[1] ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾[2] .

أما معنى الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ فأرجح الأقوال . أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ، وقال قتادة : الله أعلم بثناياه .

قوله تعالى : ﴿ **إن ربك حكيم عليم** ﴾ **شاءت حكمته أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى** الذين أحسنوا بالحسنى ، وأحاط علمه بكل شىء ، فقد علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

إن هؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض ، قضوا حياتهم فى الإغواء والملذات ، حتى بلغوا آخر الأجل الذى قضوه فى الدنيا ، فظلوا غافلين حتى أتاهم اليقين ، وأدرجوا فى أكفان القدر ، فكان مثواهم ومحل إقامتهم النار

كل بلاء دون النار عافية وكل نعيم دون الجنة حقير

تزود من التقــوى فإنك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

وكم من عروس زينوها لزوجهـــا وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم فى ثرى القبر

وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

من مشاهـــد القيامـــة

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(١) الآية ١١١ من سورة النحل . (٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

المفردات : ﴿ **نُوَلِّى** ﴾ : من الولاية والإمارة . أو جعل بعضهم أنصاراً وأولياء لبعض . ﴿ **يقُصّون** ﴾ : يتلونها مع التوضيح والتبيين ، وفى المصباح : قصصت الخبر قصاً ، أى حدثته على وجهه . ﴿ **درجات** ﴾ : مراتب من أعمالهم وجزاؤها .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾ .

قال قتادة : إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . واختاره ابن جرير .

وقال معمر : عن قتادة فى تفسير الآية : يولى الله بعض الظالمين بعضاً فى النار ، يتبع بعضهم بعضا .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى الزبور (أنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين جميعا) وذلك فى كتاب الله قوله تعالى ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً** ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا** ﴾ قال : ظالمى الجن ، وظالمى الإنس ، وقرأ : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[(١)] قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

قال ﷺ : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه »[(٢)] .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعض ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

قال تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾[(٣)] .

قوله تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ .

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يوجه الله تعالى فيه السؤال إلى الجن والإنس ، ليقطع عليهم المعاذير لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى** ﴾ أى يتلونها ويفصلونها تفصيلا ، وهذا هو منطق العدالة الإلهية . قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ وقال جل شأنه ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا **أُلقوا** فيها سمعوا لها

---

(١) الآية رقم ٣٦ من سورة الزخرف .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام (٦) .
(٣) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة التوبة .

شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾(١)

ولقد أرسل النبى ﷺ إلى الجن والإنس . وقد استمع الجن إلى القرآن من خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾(٢) .

إذاً فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وبلغ الرسالات ، وزودنا بالعقول والأفهام ، فلا حجة لمحتج ، ولا عذر لمعتذر .

فكان جوابهم ﴿ **بلى شهدنا على أنفسنا** ﴾ وهذا فى نفس الوقت إقرار وشهادة ، فالإقرار حجة قاصرة على المقر ، وهو فى نفس الوقت يشهد على غيره ، كما أن غيره بإقراره شاهد عليه ، قال تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾(٣) إذاً فالنار مثواهم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾(٤) .

قوله تعالى ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ .

اقتضت عدالته جل جلاله أنه لن يهلك أهل الطغيان والبغى إلا بعد أن ينذرهم ، فيفيقوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من سباتهم ، وينتبهوا من غفلتهم ، هذا منطق عدالته جل جلاله ، إنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٥) .

وهو القائل فى الحديث القدسى الجليل : [يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] (٦) .

ولما أهلك الله الطغاة ، ودمر الجبابرة ، وحطم القياصرة ، وهدم الأكاسرة ، قال : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليهم حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٧) .

---

(١) الآيات ٦ – ٩ من سورة الملك .
(٢) الآيتان ٣٠ – ٣١ من سورة الأحقاف .
(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الزمر .
(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٦) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .
(٧) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾[١].

وهكذا اقتضت عدالة الله أن ينذر ويحذر ، فإذا كذب بها أهل البغى حق عليهم القول ، فدمرهم الله تدميرا ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾[٣] .

والله جل فى علاه قد استحال فى حقه الظلم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[٤] .

وهذا منطق العدالة الإلهية : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[٥] فلن يهلك الله القرى إلا إذا أتت من الجرائم والمخالفات والاستكبار عن طاعة الله ، وعصيان الرسل ، ما يستحق إيقاع الهلاك بهم ، ولن يهلكها الله بظلم ، فحاشاه أن يظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ .

وهذا توكيد لمنطق العدل الإلهى ، فلكل من الفريقين الطائعين والعاصين منازل ينزلون بها ، فأهل الجنة فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأهل المعاصى فى نار الجحيم .

وهذا المعنى قرره القرآن الكريم فى كثير من مواضعه ، قال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٧] وقال سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا * أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ **وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ .

وهذا إخبار منه جل فى علاه بأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً ﴾[٩] وقال سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[١٠] وقال عز من قائل : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[١١] وقال جلت حكمته : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد** ﴾ . ﴿ ألم تر أن الله يعلم

---

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر .
(٢) الآيتان ٤، ٥ من سورة القمر .
(٣) الآية ٢٣ من سورة القمر .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ١٣٤ من سورة طه .
(٦) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٧) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٨) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .
(٩) الآية ٤٩ من سورة الكهف .
(١٠) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء
(١١) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[1] .

وعيد وتهديد

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

المفردات : ﴿ **يذهبكم** ﴾ : يهلككم . ﴿ **من ذرية** ﴾ : من نسل قوم آخرين . ﴿ **مكانتكم** ﴾ : حالكم التى أنتم عليها .

وربك الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، والكل فقير إلى رحمته وعفوه ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[2] وهو ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، رحمته وسعت كل شىء ، إذ كل ما عاداه محتاج إليه فى وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التى جعلها الله قوام وجوده وحياته .

إن يشأ يذهبكم يا أهل مكة ويأت بخلق غيركم أفضل منكم وأطوع ، وإن يشأ يستخلف من بعدكم من يشاء من الأقوام ، فإنه هو الغنى القادر على إهلاككم وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم ، أو ذرية غيركم ، يكونون أسمى منكم روحاً ، وأصفى منكم نفساً ، وقد صدق الله وعده ، فأذهب المستكبرين المعاندين الجاحدين من زعماء الشرك ، واستخلف من بعدهم قوماً آخرين هم الصحابة والسابقون من الأنصار والمهاجرين ، وبعد هذا الإنذار فى الدنيا ، إنذار فى الآخرة ، وهو إنما توعدون من جزاء وثواب آت لا شك فيه ، وما أنتم بمعجزين الله بهرب ولا منع .

﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ .

قل لهم يا محمد : يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التى أنتم عليها ، إنى عامل على طريقتى ومكانتى التى هدانى إليها ربى ، ورباني عليها ، ولسوف تعلمون من تكون له العاقبة الحسنى والنهاية العظمى . قال الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) : اعملوا على مكانتكم تحتمل وجهين ، اعملوا على تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم أو اعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ، والمراد اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فإنى ثابت على الإسلام ، فسوف تعلمون الذى تكون له العقبى يوم القيامة ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾[3] .

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٢) الآية ١٥ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٢٤ من سورة سبأ .

وهذا إنذار لطيف المسلك . دقيق المأخذ ، مع التوجه إلى النظر والفكر وحسن الأدب وبيان السبب فى الحكم للنبى ﷺ إذ لا يفلح الظالمون بالكفر .

صورة من جاهلية العرب

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

المفردات : ﴿ **ذرأ** ﴾ : أى خلق وأبدع . ﴿ **ليردوهم** ﴾ : ليهلكوهم بالإغواء . ﴿ **ليلبسوا عليهم دينهم** ﴾ : يخلطوا عليهم دينهم . ﴿ **حجر** ﴾ : الحجر أصله المنع ومنه سمى العقل حجراً لمنعه صاحبه والمراد الحرام . ﴿ **وصفهم** ﴾ : أى جزاء وصفهم .

أثر من آثار وسوسة الشيطان للإنسان ، وعمل من أعمال إبليس ، وصورة من صور الجاهلية الجهلاء ، التى كانت عليها العرب قبل الإسلام .

وجعلوا لله مما خلق من الحرث والأنعام نصيبا مفروضا ، وقدراً محدوداً ، وجعلوا كذلك نصيبا لمن أشركوهم مع الله من الأوثان والأصنام ، فقالوا هذا لله بزعمهم وتقولهم الذى لا بينة عليه ، ولا حجة فيه ، وهذا لشركائنا ومعبوداتنا نتقرب به إليها . والمروى أنهم كانوا يجعلون فى مالهم نصيبا لله ينفقونه لإطعام الفقراء والمساكين وإكرام الضيفان والصبيان ، ونصيبا للآلهة يعطى لسدنتهم وخدمهم ، وما ينفق على معابدهم ، وما كان لشركائهم خاصة لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله ، بل يجعلونه للسدنة وخدمة الأصنام والأوثان ، وما كان لله فهو واصل إلى شركائهم ، **ألا ساء الحكم حكمهم ، وبئس ما يصنعون ؟**

إذ هم اعتدوا على الله بالتشريع الفاسد وأشركوا به غيره ، وفضلوه عليه . والحال أن الله هو الذى خلق كل شيء ، وما عملوه لاسند له من عقل أو شرع ، أليست هذه جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ؟

ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة زين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم ، وكان مظهر التزيين أنهم خوفوهم الفقر فى الحاضر والمستقبل . ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[1] وخوفهم ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير الكفء .

وثالثة الأثافى أنهم كانوا يمنونهم بأن قتلهم أولادهم قربى إلى الآلهة ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد الله .

وقد سمى الله المتزينين لهم من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن سماهم الله شركاء ، لأنهم أطاعوهم طاعة فى التبجيل والاحترام ، كما فعل أهل الكتاب مع رجال الدين ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[2] زين لهؤلاء قتل الأولاد ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذى يدعونه ، وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم . والواقع أنه ليس فيه شيء من هذا ، ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبدا ، ولكن مشيئة الله للناس جميعا أن يكونوا واختيارهم ما جبلوا عليه من اختيار أى الطريقين بدون جبر ولا قهر .

أما أنت يا رسول الله ، فذرهم ولا يهمنك أمرهم ، ودعهم وما يفترون فى حقك وحقنا ، فعلى الله حسابهم .

ثم ذكر صورة ثالثة من صور الجاهلية ، المشوهة .
أنهم قسموا أموالهم وأقواتهم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) فتارة أنعام وأقوات تكون محبوسة على معبوداتهم وأوثانهم ويقولون هى محجوزة للآلهة ، لا يطعمها إلا من تشاء من رجال ونساء ، وقولهم هذا بزعمهم وادعائهم الخالى من الحجة والبرهان .
(ب) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهى البحيرة والسائبة والحامى .
(جـ) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، بل يهلون بآلهتم وحدها عند الذبح .

وقد قسموا هذا التقسيم مفترين على الله ، كاذبين عليه ، والله من ذلك برىء ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[3] والله سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه بما كانوا يفترون .

﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا** ﴾ والمراد بها البحائر المشقوقة الآذان والسوائب ، خالص خلوصاً مبالغاً فيه لذكورنا فقط ، ومحرم على نسائنا وكانت السوائب إذا ولدت

(١) الآية ٣١ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٣١ من سورة التوبة . (٣) الآية ٥٩ من سورة يونس .

ذكرا ، جعلوها للذكور خاصة ، وإذا ولدت أنثى جعلت للنتاج ، وإن كان فى بطنها ميتا جعل شركة بين الذكر والأنثى ، سيجزيهم الله جزاء وصفهم إنه حكيم عليم .

ولقد نعى الله سبحانه وتعالى على مشركى العرب أمرين عظيمين ، هما قتل الأولاد ، ووأد البنات ، وتحريم ما رزقهم الله من الطيبات ، وحكم عليهم بالخسران والسفه ، وعدم العلم والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، إذ كيف تقتل ابنك خشية الفقر أو العار وتحرم طيبات أحلت لك ؟

فأما الخسران فالولد نعمة من الله وزينة فى الدنيا ، فإذا سعى لإزالتها استحق الغضب من الله لاعتدائه ، وقال الناس : إنه قتل ابنه خوف أن يأكل طعامه ، وخسر عاطفة الأبوة التى هى مصدر الرحمة والحنان ، وجعلها مصدر الاعتداء والفناء ، وأما السفه فهل هناك سفه أكثر من قتله ابنه وفلذة كبده خوف الفقر أو خوف العار ؟ وربما كان الولد مصدر الخير لأهله ، وهل من يفعل هذا لا يعد فى مصاف الجهلاء ؟ أعوذ بالله من عادات الجاهلية .

وأما الافتراء على الله والكذب عليه ، فقد جعلوه ديناً وهم كاذبون ، وأما ضلالهم فهم لم يرشدوا إلى خير أصلا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولم يسيروا وراء عقل ولا شرع أخرج البخارى (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام) ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ ... إلى قوله تعالى .. ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ .

من مظاهر قدرة الله ونعمه مع الرد على المشركين

* وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ **أنشأ** ﴾ : خلق وأوجد بالتدريج . ﴿ **جنات** ﴾ : بساتين

الكروم والأشجار الملتفة الأغصان ؟ سميت كذلك لأنها تجن الأرض أى تسترها . ﴿ **معروشات** ﴾ : محمولات على العرائش والدعائم التى يوضع عليها كالسقف مثلا . ﴿ **حمولة** ﴾ : ما أطاق الحمل والعمل من الإبل والبقر وغيرها . ﴿ **وفرشاً** ﴾ : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل وغيرها ، أو ما يتخذ صوفه للفرش . ﴿ **حصاده** ﴾ : قطافه . ﴿ **الضأن** ﴾ : ذوات الصوف من الغنم . ﴿ **المعز** ﴾ وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار من الغنم .

المناسبة

لما افترى الكفار على الله الكذب ، وأحلوا وحرموا ، وأشركوا معه غيره ، دلهم على وحدانيته تعالى ، ومظاهر قدرته وأنه مصدر التشريع والتحريم لأنه تعالى هو الخالق وحده ، المبدع لهذه الكائنات وصاحب هذه النعم الجليلة .

وربكم القادر الرحيم بكم الرحمن ، هو الذى أنشأ تلك الجنات وأبدع هذه البساتين سواء منها المعروش القائم على العمد والسقف كبستان العنب ، وغير المعروش كبقية الفواكه والأشجار ، حتى العنب نفسه فيه المعروش وغير المعروش ، وأنشأ النخل ، وخص بالذكر لكثرته عند العرب وشيوعه فى بلادهم ، وانتفاعهم بكل ما فيه حتى ضربوه مثلا للمؤمن ينتفع بكل أجزائه ، وأنشأ الزرع الشامل لكل ما يزرع ويحرث مما هو أساس القوت وغيره ، كالقمح والشعير وغيرها ، وهذا النخل والزرع مع أنه يسقى بماء واحد ، وفى تربة واحدة ، ومتشابه فى المنظر العام ، إلا أنه يختلف فى الأكل فهذا الجيد ، وذلك المتوسط أو الردىء وهذا الحلو،وذاك المر الخ ...

فسبحانك يارب أنت القادر الحكيم .

وأنشأ الزيتون والرمان متشابهاً فى المنظر العام ، وغير متشابه فى الطعم والأكل يا سبحان الله هذه التغيرات خلقت بطبعها أم لابد لها من مغير ؟ وهل هو الله سبحانه أم غيره من الشركاء والأصنام ؟ أليس هو الله الرحمن الرحيم ؟ ولو شاء لخلقنا ولم ينعم علينا بغذاء جميل المنظر لذيذ الطعم سهل التناول .

أليس هذا من مظاهر القدرة الكاملة ، والحكمة التامة ، والوحدانية الشاملة ، للذات والصفات ، فهذا الماء ذو الكثافة من رفعه فى العود الأخضر إلى أعلى ؟ حتى انتهى إلى ورق أخضر ،ولون أزهر ، وجنى جديد ، وطعم لذيذ ، وشكل جميل ، وهذا غذاء النحل يصير عسلا ، وغذاء الظبى يصير مسكا ، وغذاء الحيوان يصير روثا !

أين من يقولون خلق الكون بالطبع ؟ أين من يكفرون بالرحمن ؟ أين من يعصون الله فى أرضه وتحت سمائه ؟

كلوا أيها الناس من ثمر هذا الزرع والجنات إذا أثمر ، واشكروا نعمه عليكم ،بأن تأتوا حقه الذى

فرض عليكم يوم حصاده وقطافه ، قبل أن تشح به نفوسكم ، ففيه حق معلوم للسائل والمحروم ، وهذه هى الزكاة المطلقة التى وجبت فى صدر الإسلام ، ثم كانت الزكاة المقيدة المحددة الواجبة فى الآيات المدنية .

ولا تسرفوا فالإسراف خطأ مطلقا ولو فى الشيء الحلال ، ولا تسرفوا فى الأكل ، ولا تسرفوا فى التصرف ، وقد قيل : لا سرف فى الخير ، ولا خير فى السرف ، والرأى هو التوسط فى كل شيء .

وأنشأ من الأنعام كباراً تصلح للحمل والعمل ، وصغارا كالفصلان والغنم والمعز مثلا ، تفرش على الأرض للذبح ، ويتخذ من شعرها ووبرها فرشٌ ولباسٌ .

وكلوا مما رزقكم الله ، وانتفعوا بلحمها ولبنها ووبرها وشعرها ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فتحرموا ما أحل الله . أو تحلوا ما حرم الله ، فإن الشيطان عدوكم الظاهر : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[1] .

وهذه الأنعام ثمانية أزواج : فهى إبل وبقر وغنم ومعز ، وكل منها ذكر وأنثى ، وقد أنشأ الله من الضأن اثنين الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين التيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة .

قل لهم أيها الرسول تبكيتاً وتوبيخا : أحرم الله الذكرين من الكبش والتيس؟أم حرم الأنثيين من النعجة والعنزة نبئونى بعلم إن كنتم صادقين؟أم حرم الذكرين من الجمل والثور أم حرم الأنثيين من الناقة والبقرة ؟ أم حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

وقد كان المشركون فى الجاهلية يحرمون بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، مااحتج الله سبحانه وتعالى عليهم بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكر أو أنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراما ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وجب تحريم الأولاد كلها .

والله تعالى ما حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون فى دعوى التحريم ، وقد فصل الله ذلك أتم تفصيل ، مبالغة فى الرد عليهم ثم زاد فى الإنكار فقال : بل أكنتم حضوراً أو قد وصاكم الله بهذا ؟ أى أعندكم علم يؤثر عن الإنكار من رسله ؟ أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ كلا ما حصل هذا ولا ذاك ، وإنما أنتم تفترون على الله الكذب ، وتقولون هذا حلال وهذا حرام وتقولون على الله ما لا تعلمون .

وبعد أن نفى طريقى العلم ، وهو التلقى من الرسل أو من الله . أثبت أنه لا أحد أظلم ممن ثبت أنه

(١) الآية ١٦٩ من سورة البقرة .

افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ، أما جزاؤكم فإن الله لا يهدى القوم الظالمين ، ولا يوفقهم إلى الرشاد وإلى الهدى والخير أصلا .

المحرمات

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **محرماً** ﴾ : محظورا أو ممنوعا . ﴿ **طاعم يطعمه** ﴾ : آكل يأكله . ﴿ **مسفوحاً** ﴾ : مصبوبا سائلا يجرى من المذبوح . ﴿ **رجس** ﴾ : قذر قبيح . ﴿ **شحومها** ﴾ : المراد الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش . وكذا الشحم الذى يكون على الكلية . ﴿ **الحوايا** ﴾ : مجتمع الأمعاء فى البطن . ﴿ **بأسه** ﴾ : عذابه .

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحى من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفتريا على الله معتديا على مقام الربوبية ، ومن أتبعه فى ذلك فقد اتخذه شريكاً لله تعالى ، وأبان من هذا الافتراء ما حرمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحرث قفى على ذلك بذكر ما حرمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله ، وألسنة بعض الرسل قبله .

أخرج عبد بن حميد عن طاووس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت ﴿ **قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ .

أى قل أيها الرسول ،لهؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس لا أجد فيما أوحاه إلى ربى طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله إلا أن يكون ميتة لم يُذَكَّ ذكاة شرعية وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجرى من المذبوح فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال وفى الحديث

« أحلت لنا ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال »[1] أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك خبيث تعافه الطباع السليمة .

وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقاً أهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبدا وبذكر اسمه عليه عند ذبحه . ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم** ﴾ أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مريد لذلك ولا قاصد له ولا متجاوز حد الضرورة فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره – غفور رحيم فلا يؤاخذه بأكل ما يسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

قوله تعالى ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر** ﴾ أى ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط كما ورد ، وحرمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرهما شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة وهى ما على الكرش والكلى أما الشحوم التى على الظهر وفى الذيل فحلال بدليل قوله ﴿ **إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ وإلا ما حملته الأمعاء فتلخص أن المحرم عليهم من الشحوم هو شحم الكرش والكلى فقط .

وإنما حرم الله عليهم ذلك عقوبة لهم فى قتلهم الأنبياء بغير حق ، وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، واستحلالهم أموال الناس بالباطل ، وفى ذكر هذا تكذيب لليهود فى قولهم إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

ولما كان هذا إخباراً عن شيء جرى قديما لم يكن للنبى ﷺ ولا لأحد من قومه علم به قال وإنا لصادقون ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فإن كذبوك بعد هذا وقالوا : إن الله رحيم واسع الرحمة كريم فكيف يحرم ما أحله ؟ قل لهم : لهم نعم ربكم ذو رحمة واسعة ، ولكن من عصى وبغى لابد من عقابه فإنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فى حق أنفسهم ، وحق الله .

حجة داحضة

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) اخرجه ابن ماجه فى الاطعمة (٣١) .

المفردات : ﴿ **تخرصون** ﴾ : الخرص الحذر والتخمين والمراد تكذبون . ﴿ **الحجة** ﴾ : الدلالة المبينة للدين الحق . ﴿ **هلم** ﴾ : أى أحضروا . ﴿ **يعدلون** ﴾ : يتخذون له عدلا مساويا .

من حجج المشركين الباطلة قولهم ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء** ﴾ وقد رد عليهم مولانا تبارك وتعالى بقوله ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ لقد قطع الله المعاذير على العباد فقد أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً، وقد أنزل الله كتباً تتلى فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، وقد زود الله عباده بالعقل والكسب والاختيار ، فرفع قلم التكليف عن المجانين ، وبين الهدى من الضلال ، وميز الحق من الباطل .

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[(١)] .

أبعد قول الله تعالى ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ تكون هناك حجة لكل معتد أثيم ، إن الله تعالى بين وأنذر ، وقد أعذر من أنذر ، وعفا وتاب على من عاد بعد معصية ، وفتح باب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، وتغرب فى مشرقها ، ورفع التكليف عن كل خطأ ونسيان واستكراه ، وعن المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصبى حتى يحتلم ، ولم يكلفنا إلا بما نستطيع ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[(٢)] ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[(٣)] ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾[(٤)] .

أبعد هذا البيان يقولون على الله كذباً وبهتاناً ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا** ﴾ إنها حجة داحضة .

يقول الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أن الله تعالى أراد بنا وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا ، فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا ، كذلك فإن مثل علم الله فينا كما قال النبى ﷺ كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لا يستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا يستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[(٥)] .

وقال جل شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[(٦)] . وقال تبارك اسمه :

---

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٦ من سورة التغابن .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[١] وقال عظمت حكمته ﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٢] .

وقال : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٣] .

وقال جلت حكمته : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[٤] وقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾[٥] وقال : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٦] .

فأى حجة لمحتج بعد هذا البيان ، وقد رد الله تعالى فى موضع آخر جاء فى سورة النحل . رد على هؤلاء المفترين فقال ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾[٧] قال تعالى رداً عليهم : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٨] .

إن هذه الحجج التى تشدقوا بها وردت فى مواضع عن الكتاب العزيز مثل ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم . مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾[٩] .

ثم بين الله تعالى أنهم مقلدون لآبائهم . جاحدون على كفرهم ، فقال : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[١٠]. وفى موضع آخر يقول جلت قدرته ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾[١١].

وقد دحض الله أقاويلهم تلك فى قوله ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلاقال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[١٢].

فإذا كان هؤلاء قد احتجوا بالمشيئة فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وحرموا من الحرث والأنعام ما لم يحرمه الله ، وأحلوا أشياء وحرموا أخرى تبعاً لأهوائهم ، ثم احتجوا بمشيئة الله ، فإن الله

---

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآيات ٨ – ١٠ من سورة الليل .
(٣) الآيات ٥٤ – ٥٩ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٣ من سورة الإنسان .
(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .
(٦) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس .
(٧) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٨) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة النحل .
(٩) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
(١٠) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .
(١١) الآية ٤٧ من سورة يس .
(١٢) الآيات ٢٣ – ٢٥ من سورة الزخرف

تعالى قد بين وأوضح ، لذلك جاء كلامه مبنياً على التكذيب الذى كذبه آباؤهم ، والذين من قبلهم حتى ذاقوا بأس الله وعذابه ، جزاء وفاقا على عنادهم وافترائهم .

﴿ **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا** ﴾ وهل تستطيعون أن تقيموا الأدلة على صدق ما تقولون . وما تزعمون ، إن تتبعون إلا الظن والتخمين والكذب ، وإن أنتم إلا تخرصون ، أما الحجة البالغة فإنها لله وحده ، فإنه يقول الحق وهو يهدى السبيل . ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾(١) .

قوله تعالى ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ أى لفطركم على الهداية كالملائكة المكرمين ، لكنه زودكم بالكسب والاختيار ، وسوف يجزيكم على حسن مباشرتكم للأسباب ، أو سوء مباشرتها ، لذا فعليكم أن تعملوا بما أمركم وتنتهوا عما نهاكم ، قال جل جلاله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾(٢) .

قوله تعالى ﴿ **كل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا** ﴾ أى أحضروا ما عندكم من الشهود الذين يشهدون على تحريم ما حرمت من الحرث والأنعام ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم يا محمد ، لأنك لا تشهد إلا بالحق ، لأنك الرسول الحق ، الذى تتلقى عن الله الحق ، وهؤلاء قوم يتبعون الهوى ، وهوى النفس قد أعيا كل طبيب ، وأعمى كل لبيب . ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ ﴿ **والذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وكفى بذلك ضلالا بعيدا وطغياناً كبيرا وعتوا ونفورا . إنهم مع تكذيبهم بآيات الله واتباعهم الهوى ، يعدلون بالله آلهة أخرى ، وكفى بذلك افتراء على الله ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾(٣) ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾(٤) .

أصول الإسلام والفضائل

* قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

(١) الآية ٩ من سورة النحل . (٢) الآية ٩ من سورة النحل . (٣) الآية ٤٨ من سورة النساء . (٤) الآية ١١٦ من سورة النساء

المفردات : ﴿ **تعالوا** ﴾ : أقبلوا والأصل أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم . ﴿ **أتل** ﴾ : أقرأ . ﴿ **إملاق** ﴾ : فقر . ﴿**الفواحش** ﴾ : ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر أو الخطيئة التى بلغت الغاية فى الفحش . ﴿ **أشده** ﴾ : كمال رجولته وتمام حنكته ومعرفته .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا – إلى قوله تعالى : لعلكم تتقون** ﴾ .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ الآيات .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أيكم يبايعنى على ثلاث** » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ حتى فرغ من الآيات « **فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبة ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه** »[1] .

يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ **قل** ﴾ لهم ﴿ **تعالوا** ﴾ أى هلموا وأقبلوا ﴿ **أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ أى أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا ، لا تخرصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ **ألا تشركوا به شيئا** ﴾ وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ **ألا تشركوا به شيئاً** ﴾ ولهذا قال فى آخر الآية ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ .

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم ، وفى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؟ وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر »[2] .

وفى بعض الروايات إن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٣١٣ ، ٣٢٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلح (٥) وفى الأحكام (٣٩) وفى الآحاد (١) وفى الشروط (٩) وفى الأيمان (٣) وفى الحدود (٣٠ ، ٣٤ ، ٣٨) وأخرجه مسلم فى الحدود (٢٥) وفى القضاة (٢٢) . وأخرجه أبو داود فى الحدود (٢٥) والترمذى فى الحدود (٨) وابن ماجه فى الحدود (٧) والإمام مالك فى الحدود (٦) والإمام أحمد فى (٤ : ١١٥ ، ١١٦) .

فى الثالثة «وإن رغم أنف أبى ذر» فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : «وإن رغم أنف أبى ذر» [١] .

وعن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى : [يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئاً ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك] [٢] .

ولهذا شاهد فى القرآن قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٣] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود : «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» [٤] .

وعن رسول الله ﷺ : «لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم» [٥] .

قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أى أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[٦] .

والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قاله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٧] .

فأمر بالاحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما . وقال تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾[٨] .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله ﷺ : (أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٤) . والبخارى فى اللباس (٢٤) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٩٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٢) .

(٣) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٠ – ١٥٣) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . وأخرجه البخارى فى العلم (٤٩) وفى الجنائز (١) وفى التوحيد (٣٣) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى الاستقراض (٣) وفى بدء الخلق (٦) وفى الاستئذان (٣٠) . وأخرجه الترمذى فى الإيمان (١٨) . والنسائى فى الصلاة (١) وفى الجهاد (١٨) . وابن ماجه فى الديات (١) وفى الأدب (٥٨) وفى الزهد (٣٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٢) وفى (٢ : ١٧٠) وفى (٣ : ٧٩) وفى (٤ : ١٤٨ ، ١٥٢) وفى (٥ : ١٤٥ ، ١٦٢) وفى (٦ : ٢٤ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠) .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٣) . وللإمام أحمد (٤ : ١١) وفى (٥ : ٣٢٨) .

(٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان .

(٨) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قال ابن مسعود حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى)[١] .

عن أبى الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله ﷺ « أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل »[٢] .

قوله تعالى ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم** ﴾

لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ « أى الذنب أعظم » قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿ **من إملاق** ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره : هو الفقر ، أى ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل :

وقال فى سورة الاسراء ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر فى الآجل ، ولهذا قال هناك ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أى لاتخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[٤] كقوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

وقال عبد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاه المغيرة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: « اتعجبون من غيرة سعد ؟ فو الله

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢) (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٠ ، ١٦٤ ، ٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٢ : ٣) (وسورة ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) وفى التوحيد (٤٠ ، ٤٦) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) . وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والترمذى فى التفسير (سورة ٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤٤) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤) .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » [١]

قوله تعالى ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ .

وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [٢] .

قوله تعالى ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه .

قوله تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزل الله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** ﴾ و﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكلهأو يفسد ،فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ قال : (فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم)رواه أبو داود .

وقوله تعالى ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى حتى يحتلم .

قوله تعالى ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه فى قوله تعالى :

﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[٣] .

وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان ، قال تعالى : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٦ : ٧) و(سورة ٧ : ١) وفى النكاح (١٠٧) وفى التوحيد (١٥ ، ٢٠) . وأخرجه مسلم فى اللعان (١٧) وفى التوبة (٣٢ – ٣٥) . والترمذى فى الدعوات (٩٥) . والدارمى فى النكاح (٣٧) والأمام أحمد فى (١ : ٣٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦) وفى (٤ : ٢٤٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الديات (٦) . ومسلم فى القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود فى الحدود (١) . والترمذى فى الحدود (١٥) . والنسائى فى التحريم (٥ ، ١١ ، ١٤) . والدارمى فى السير (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفى (٦ : ١٨١ ، ٢١٤) .

(٣) الآيات ١ – ٦ من سورة المطففين .

(٤) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود .

وقال ﷺ :
« ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **لا نكلف نفسا إلا وسعها** ﴾ أى من اجتهد فى أداء الحق ، وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾ قال ابن جرير : يقول بوصية الله التى أوصاكم بها ، فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به ، وأكد عليكم فيه ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها .

قوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ وفى قوله : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾[٣] **ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم** عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله ، ونحو هذا قال مجاهد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :
خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٤] .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتى **الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ، ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد** الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ،

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٣ من سورة الشورى .
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤) . وابن ماجه فى الزهد (٢٧) .

والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم »[١] رواه الترمذى والنسائى. قوله تعالى ﴿ **فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٢] .

حجة الله على عبادة

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : ﴿ **طائفتين من قبلنا** ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ **دراستهم** ﴾ : قراءتهم وعلمهم . ﴿ **بينة** ﴾ : البينة والبيان ما به يظهر الحق . ﴿ **وصدف عنها** ﴾ : ومنع الناس عنها .

لقد ذكر القرآن الكريم الوصايا العشر بعد ما تكلم على أسس الدين وأصوله ، ثم قفى ذلك بالحديث على القرآن وأثره ، ورد بعض شبه المعاندين ، وافتتح ذلك بالكلام على التوراة ، فهى أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتمالها على الأحكام كثيراً ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ وهو كذا وكذا الخ الوصايا العشر السابقة ، ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب تماما للنعمة والكرامة والخير والهداية على المؤمن المحسن .

نعم كان تماما على من أحسن ، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ تماماً على الذين أحسنوا أى فى اتباعه ، والنظر فيه ، والاهتداء بهديه ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾[٣] (آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء) من أحكام الشريعة عبادتها ومعاملتها ، وهدى لمن اهتدى به ، ورحمة لمن تمسك به فينجيه من الضلالة والبهتان ، آتينا موسى الكتاب بهذا الوصف ، وبهذه الحكمة ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله ، وموضع الفوز فى دار الكرامة ودار السلام .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ٨٢ ، ١٨٣) والترمذى فى الأدب (٧٦) .

(٢) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة .

وهذا القرآن الذى تليت عليكم آياته البينات بأسلوبه العربى المعجز ، هو الكتاب لا ريب فيه ، أنزلناه كثير البركات ، عظيم الشأن ، كثير الخير فى الدين والدنيا ، قد جاء بأكثر مما جاءت به التوراة فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، فهو حبل الله المتين ونوره اليقين ، جمع طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة ، فاعملوا به لتكون رحمة الله لكم فى حياتكم ومعادكم .

أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله والهادى إلى سبيله ، والموصل إلى تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والفسوق والعصيان ، لئلا تقولوا يوم الحساب إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم وقراءة كتبهم وتفهمها لغافلين ، لا ندرى ما هى ، لأنها بلسان غير عربى ، ولأنا مشغولون بغيرها ولم ندع إليها . ولئلا تقولوا كذلك لو أنا أنزل علينا الكتاب الهادى إلى سواء السبيل لكنا أهدى منهم ، وأحسن حالا لصفاء نفوسنا وقوة عزائمنا وذكاء عقولنا وإرهاف إحساسنا : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾[1] .

فرد الله عليهم بقوله تبكيتاً لهم وتأنيباً : إن صدقتم فيما تقولون فقد جاءكم كتاب بيّن الحق ، واضح الحجج ، سديد البرهان ، تام الأصول والفروع والأحكام ، فهو البينة الفاصلة ، والحجة الكاملة ،وهو هاد لمن تدبره واتعظ به ، ورحمة عامة للناس لما فيه من الدعوة إلى المثل العليا ، زيادة عن الدعوة إلى الدين الحق ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ممن كذب بآيات الله .

نعم لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله التى على هذا الوصف ، ومنع الناس عنها ، وعن النظر فيها ، والإيمان بها ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[2] .

سنجزى الذى يمنعون الناس عن الإيمان بآياتنا العذاب السىء الشديد ، إذ هم يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، وبما كانوا يمنعون غيرهم من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، واتباع هدى القرآن ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[3] .

تهديد وإنذار

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ **ينتظرون** ﴾ : ينتظرون .

(١) الآية ٤٢ من سورة فاطر . (٢) الآية ٢٦ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٨٨ من سورة النحل .

بعد ما وصف الله القرآن وأثره ، وأنذر من يكذبه بصارم العقاب ، أتبع هذا بحقيقة المشركين وما ينتظرون ، هل ينظر هؤلاء إلا أن تأتيهم الملائكة كما اقترحوا ، أو يأتى ربك كما طلبوا ، وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[1] ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[2] . أو تأتيهم بعض آيات ربك التى اقترحوها بكفرهم ، وقولهم ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾[3] ونحو ذلك .

فهم فى الحقيقة لا ينتظرون بمجىء الملائكة ، أو مجىء ربك ، أو مجىء بعض آيات ربك ، فهم متمادون فى التكذيب ولا أمل فيهم أبدا ، ولا خير فيهم أصلا ، وقيل : هم لا ينظرون إلا ملائكة الموت أو أمر الله أى وعده ووعيده ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[4] .

﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ الآيات الدالة على قرب قيام الساعة ، أو بعض الآيات الموجبة للإيمان الاضطرارى ، لا ينفع هذا الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل ، فإن الإيمان تكليف وعمل واختبار ، وليس فى هذا الوقت واحد منها ، ولا ينفع هذا الإيمان نفساً آمنت من قبل ولم تعمل عملا صالحاً ، إذ ليس الإيمان وحده كافيا فى سقوط العذاب عن الشخص ، بل لابد من إيمان وعمل ، ولذلك كان القرآن دائما يقرن الإيمان بالعمل ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾[5] ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[6] .

وقد ورد فى الحديث أن بعض الآيات هى طلوع الشمس من المغرب ، واضطراب هذا الكون .

أخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة : « ثلاثة إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض »[7] .

قل لهم يا محمد انتظروا ، وما تتوقعون من إماتة الدعوة ، وقتل الرسول ، وهلاك الدين ، إنا منتظرون أمر ربنا ووعده الصادق لنا ، ووعيده المتحقق لأعدائنا : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾[8] .

﴿ **اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ وهذا تهديد ووعيد شديد إذ هم ينتظرون أمراً قد قضى الله فيه ، إذ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٣ من سورة النحل .

(٥) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

(٦) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .

(٧) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٩) ، وأخرجه أحمد فى (١ : ١٩٢) وفى (٢ : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٩٥ ، ٤٩٥) وفى (٣ : ٣١ ، ٩٨) وفى (٤ : ٦ ، ٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) والترمذى فى الفتن (٢١) وفى تفسير (سورة ٦ : ٨ ، ٩) و(سورة ٣٦ ، ٢) .

(٨) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

عاقبة الاختلاف وعدم الاتحاد

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

روى أبو داود والترمذى عن معاوية قال ما معناه : « قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون فرقة فى النار ، وفرقة واحدة فى الجنة ، وهى الجماعة »[١] .

وعلى هذا تكون الآية الكريمة شاملة لأهل الكتاب ولغيرهم من فرق المسلمين ، وهى مسوقة للتحذير من الاختلاف ، واتباع الآراء والبدع والمتشابهات ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على شرع أنبيائهم ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات ﴾[٢] وقد ورد ﴿ **اللهم إيمانا كإيمان العجائز** ﴾ إيمان بعيد عن الشبه والخلافات الضارة .

إن الذين فرقوا دينهم ، واختلفوا فيه ، وأقروا ببعض ، وكفروا ببعض ، وأوّلوا نصوصه على حسب أهوائهم ونزعاتهم ، وكانوا شيعاً ، كل شيعة تدين برأى إمامهم ، وتتعصب له ، لست أنت يا رسول الله من قتالهم وسؤالهم وعقابهم فى شىء ، وإنما عليك تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة إليه ، أنت يا محمد برىء منهم ، وهم منك براء ، إنما أمرهم وحسابهم على الله وحده ، ثم ينبئهم فى الآخرة ويجازيهم أحسن الجزاء بما كانوا يفعلون .

الجزاء على العمل

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له عند الله حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة »[٣] .

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة جازاه الله عليها عشر حسنات ، والمضاعفة بعد ذلك إلى سبعمائة أو ما شاء بعد ذلك من زيادة الله أعلم بها ، تختلف على حسب مشيئته تعالى وعلمه

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١) ، والدارمى فى السير (٧٤) .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣١) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩) وأخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٦ : ١٠) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٧ ، ٢٧٩) وفى (٣ : ١٤٩) .

بأحوال المحسنين « إذ من يبذل درهما ونفسه غير راضية لا يكون كمن ينفقه طيبة به نفسه مسرورة بعملها »[١] .

ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها فقط وهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من أعمالهم شيئاً ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٢] .

التوحيد والإخلاص فى العقيدة والعمل والجزاء على ذلك

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ **دينا قيما** ﴾ : يقوم به أمر الناس ونظامهم فى الدنيا والآخرة أو قائماً مستقيماً لا عوج فيه . ﴿ **حنيفاً** ﴾ : مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة والمراد مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام . ﴿ **نسكى** ﴾ : عبادتى من حج وغيره . ﴿ **محياى ومماتى** ﴾ : المراد ما آتيه فى حياتى وموتى . ﴿ **وازرة** ﴾ : الوزر الحمل الثقيل ، والمراد النفس الآثمة المذنبة .

هذا ختام سورة جامعة لأصول التوحيد ، شارحة للعقيدة الإسلامية ، وبخاصة أحوال البعث والجزاء ، وإثبات الرسالة وما يتبع ذلك ولهذا كان ختامها خلاصة ما تقدم .

قل يا محمد إننى هدانى الله ووفقنى إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ، هو الدين القيم الموصل إلى سعادة الدارين ، الذى يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم ، وبه يصلحون ، هذا الدين هو ملة أبيكم إبراهيم الخليل فالتزموه حال كونه حنيفا مائلا عن جميع وسائل الشرك والباطل إلى الدين الحق الذى من دعائه فى كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾[٣] .

وما كان إبراهيم من المشركين أبداً ، فأما من يعتقد أن الملائكة بنات الله أو عزير أو المسيح ابن الله فهؤلاء هم المشركون ، وليسوا على ملة إبراهيم ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[٤] هذا الدين هو دين الإخلاص ، والعمل لله هو

(١) أخرجه البخارى فى الإجارة (١) . ومسلم فى الزكاة (٧٩) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ٤٣) والإمام مالك فى البيوع (٩٢) .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

الذى ارتضاه لأنبيائه ، ورسله ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[1] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[2] . هذا هو التوحيد الخالص فى العقيدة .

قل لهم يا محمد إن صلاتى ودعائى ونسكى وعبادتى وما آتيه فى حياتى كلها ، بل وحياتى ومماتى ، كل ذلك خالص لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال أمر الله .

والآية الشريفة جامعة لكل أعمال المسلم ، فيجب عليه أن يوطد العزم ويعقد النية على أن صلاته وعبادته وحياته وما يأتيه فيها وموته وما يلاقى فيه كل ذلك لله لا شىء آخر فإن عاش فلله وإن مات فلله له الحكم وله الأمر .

ولست أبالى حين أقتل مسلما　　على أى جنب كان فى الله مصرعى

فالمسلم لا يحرص على الحياة ، ولا يرهب الموت ، بل يكون الموت فى سبيل الله أسمى أمانيه لا يقعد عن الجهاد ، ولا يتوانى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهكذا جند الله الصحابة رضوان الله عليهم .

قل لهم يا محمد أغير الله أبغى ربا ، وأشركه فى العبادة وأتوجه إليه فى الدعاء ، والله سبحانه رب كل شىء وخالق كل شىء .

﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[3] .

أما الجزاء على هذا فهذا نظامه :

ولا تكسب كل نفس إثماً أو ذنباً إلا كان عليها جزاؤه ووزره ، ولا تزر نفس وزر غيرها أبداً ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فهذا هو الدين ، دين العمل والجد ، لا دين الأمانى والغرور الكاذب .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح للمجتمع البشرى ، ومن أعلى مزايا الدين الإسلامى ، ومن أقوى معاول الهدم للوثنية .

ثم إلى ربكم مرجعكم لا إلى غيره ، ثم هو وحده ينبئكم ويجازيكم على أعمالكم التى كنتم فيها تختلفون .

سنة الله فى الخلق

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٣) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

هذا هو الدواء لا غير ، وهذا هو العلاج فحسب ، به تهدأ النفوس وتطمئن القلوب .

فنحن خلائف من تقدمنا ، فليس لنا بقاء ، وكما وصلت إلينا ستخرج منا ، ونحن خلائف فلا ملك لنا ولا تصريف فى الواقع ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[1] .

إذا كان هذا فلم هذا التناحر والتهالك والتباغض والتكالب ، ولماذا تبخلون بما جعلكم مستخلفين فيه .

والله سبحانه رفع بعضكم فوق بعض درجات فى العلم والعمل والغنى والفقر ، ليبلوكم جميعا كل بما عنده ، فيختبر الغنى هل يؤدى زكاة ماله ، هل يتصدق بالفضل من ماله ، هل يعطف على الفقير والمحتاج والمسكين ، أم هو نهم جشع صلد صلب كالحجر ، نعم ويبلو الفقير هل يصبر ويرضى ، أم يشكو ويكفر ؟

وإذا كان الله سبحانه قد رفع بعضنا فوق بعض فما علينا إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[2] .

وعلى الجملة فهذا علاج نفسى لعلل السخائم والتحاسد والعلاج الاقتصادى معروف . تشير إليه الآية أيضا ، وهو الاشتراكية الإسلامية الممثلة فى الزكاة المطلقة والمقيدة ، والنظم المالية المعروفة فى الفقه الإسلامى .

إن ربك سريع العقاب ، شديد العذاب لا يهمل ، وإن أمهل يُمكِّن للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يخلق فى الضعيف المسكين قوة يحاد لها الملك الجبار ، فاعتبروا بما مر بنا من الآيات ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[3] وإنه لغفور لكل تائب ، رحيم بكل محسن .

---

(١) الآية ٧ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

سورة الأعراف

هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً .

وعدد آياتها مائتان وست آيات ، فى عد قراء الكوفة والحجاز ، وخمس فى عد قراء الشام والبصرة .

وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة ، وحروفها أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وعشرة أحرف .

قال صاحب البصائر رحمه الله تعالى ولهذه السورة ثلاثة أسماء : سورة الأعراف فى ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾[1] وهو سور بين الجنة والنار . والثانى : سورة الميقات لاشتمالها على ذكر ميقات موسى فى قوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾[2] . الثالث : سورة الميثاق لاشتمالها على حديث الميثاق فى قوله : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[3] . وأشهرها سورة الأعراف .

مقصود السورة

على سبيل الإجمال : تسلية النبى ﷺ فى تكذيب الكفار إياه ، وذكر وزن الأعمال يوم القيامة ، وذكر خلق آدم ، وإباء إبليس من السجود لآدم ، ووسوسته لهما للأكل من الشجرة ، وتحذير بنى آدم من قبول وسوسته ، والأمر باتخاذ الزينة وستر العورة فى وقت الصلاة ، والرد على المكذبين ، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً .

وبيان مذلة الكفار فى النار ، ومناظرة بعضهم بعضاً ، ويأسهم من دخول الجنة ، وذكر المنادى بين الجنة والنار ، ونداء أصحاب الأعراف لكلا الفريقين ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وحجة التوحيد والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته ، وقصة نوح والطوفان ، وذكر هود وهلاك عاد ، وحديث صالح وقهر ثمود ، وخبر لوط وقومه ، وخبر شعيب وأهل مدين ، وتخويف الآمنين من مكر الله ، وتفصيل أحوال موسى (وفرعون والسحرة واستغاثة بنى إسرائيل وذكر الآيات المفصلات وحديث خلافة هارون وميقات موسى) وقصة عجل السامرى فى غيبة موسى ، ورجوع موسى إلى قومه ومخاطبته لأخيه هارون .

وذكر النبى العربى ﷺ ، والإشارة إلى ذكر الأسباط ، وقصة أصحاب السبت ، وأهل أيلة ، وذم علماء أهل الكتاب .

وحديث الميثاق ، ومعاهدة الله تعالى الذرية ، وطرد بلعام بسبب ميله إلى الدنيا ، ونصيب جهنم من الجن والإنس ، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة ، وإخفاء علمه على العالمين ، وحديث صحبة آدم وحواء فى أول الحال ، وذم الأصنام وعبادها ، وأمر الرسول بمكارم الأخلاق ، وأمر الخلائق بالإنصات والاستماع لقراءة القرآن .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

والإخبار عن خضوع الملائكة فى الملكوت وانقيادهم بحضرة الجلال فى قوله ﴿ يسبحونه وله يسجدون ﴾(١) .

المتشابهات

قوله : ﴿ **ما منعك** ﴾ هنا وفى (ص) ﴿ **يا إبليس ما منعك** ﴾ وفى الحجر ﴿ **قال يا ابليس مالك** ﴾ بزيادة ﴿ **يا إبليس** ﴾ فى السورتين لأن خطابه قرب من ذكره فى هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ **إلا إبليس لم يكن من الساجدين.قال ما منعك** ﴾ فحسن حذف النداء والمنادى ولم يقرب فى (ص) قربه منه فى هذه السورة ، لأن فى (ص) ﴿ **إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾ بزيادة ﴿ **استكبر** ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال : ﴿ **يا إبليس مامنعك** ﴾ وكذلك فى الحجر فإن فيها ﴿ **إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾ بزيادة ﴿ **أبى** ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال ﴿ **يا إبليس مالك** ﴾ .

قوله : ﴿ **ألا تسجد** ﴾ وفى (ص) ﴿ **أن تسجد** ﴾ وفى الحجر ﴿ **ألا تكون** ﴾ فزاد فى هذه السورة ﴿ **لا** ﴾ وللمفسرين فى ﴿ **لا** ﴾ أقوال :

قال بعضهم : ﴿ **لا** ﴾ صلة كما فى قوله ﴿ **لئلا يعلم** ﴾ وقال بعضهم : الممنوع من الشيء مضطر إلى خلاف ما منع منه ، وقال بعضهم معناه من قال لك : لا تسجد ، وقد ذكر فى مطولات مبسوطة والذى يليق بهذا الموضع ذكر السبب الذى خص هذه السورة بزيادة ﴿ **لا** ﴾ دون السورتين .

قال تاج القراء : لما حذف فيها يا إبليس ، واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا ، زيادة فى النفى ، وإعلاماً أن المخاطب به إبليس ، خلافاً للسورتين ، فإنه صرح فيهما باسمه .

وإن شئت قلت : جمع ما فى هذه السورة وبين ما فى (ص) والحجر فقال : ما منعك أن تسجد ، مالك ألا تسجد ، وحذف مالك لدلالة (الحال ودلالة) السورتين عليه ، فبقى ما منعك ألا تسجد ، وهذه لطيفه فاحفظها .

قوله : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وفى (ص) مثله وقال فى الحجر ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر** ﴾ فجاء على لفظ آخر ، لأن السؤال فى الأعراف و(ص) : ﴿ **ما منعك** ﴾ فلما اتفق السؤال اتفق الجواب ، وهو قوله ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ ولما زاد فى الحجر لفظ ﴿ **تكون** ﴾ فى السؤال وهو قوله ﴿ **مالك ألا تكون مع الساجدين** ﴾ زاد فى الجواب أيضاً لفظ الكون فقال ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر** ﴾ .

قوله ﴿ **أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ وفى الحجر وفى (ص) ﴿ **رب فأنظرنى** ﴾ لأنه سبحانه لما اقتصر فى السؤال على الخطاب ، دون صريح الاسم فى هذه السورة ، اقتصر فى الجواب أيضا على الخطاب دون ذكر المنادى . وأما زيادة الفاء فى السورتين دون هذه السورة ، فلأن داعية إلغاء ما تضمنه

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

النداء من أدعو ، أو أنادى نحو قوله ﴿ **ربنا فاغفر لنا** ﴾ أى أدعوك ، وكذلك داعية الواو فى قوله ﴿ **ربنا وآتنا** ﴾ فحذف المنادى ، فلما حذفه حذفت الفاء .

قوله ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ هنا وفى السورتين ﴿ **فإنك** ﴾ لأن الجواب يبنى على السؤال . ولما خلا السؤال فى هذه السورة عن الفاء خلا الجواب عنه ، ولما ثبت الفاء فى السؤال فى السورتين ثبتت فى الجواب ، والجواب فى السور الثلاثة إجابة ، وليس باستجابة .

قوله ﴿ فبما أغويتنى ﴾ فى هذه السورة وفى (ص) ﴿ **فبعزتك لأغوينهم** ﴾ وفى الحجر ﴿ **رب بما أغويتنى** ﴾ لأن ما فى هذه السورة موافق لما قبله فى الاقتصار على الخطاب ، دون النداء ، وما فى الحجر موافق لما قبله من مطابقة النداء ، وزاد فى هذه السورة الفاء (التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطاً بالأول ، ولم يدخل فى الحجر ، فاكتفى بمطابقة النداء (لا متناع النداء) منه ، لأنه ليس بالذى يستدعيه النداء ، فإن ذلك يقع مع السؤال والطلب ، وهذا قسم عند أكثرهم ، بدليل ما فى (ص) وخبر عند بعضهم والذى فى (ص) على قياس ما فى الأعراف دون الحجر ، لأن موافقتهما أكثر على ما سبق ، فقال ﴿ **فبعزتك** ﴾ والله أعلم .

وهذا الفصل فى هذه السورة برهان لامع ، وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل ، فأجاب عنها وقال ! إن امتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بعينها كان اتفاقها واختلافها سواءً ، إذا أدى المعنى المقصود ، وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة السهر إلى السحر .

قوله ﴿ **قال اخرج منها مذءوما مدحوراً** ﴾ ليس فى القرآن غيره ، لأنه سبحانه لما بالغ فى الحكاية عنه بقوله ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ بالغ فى ذمه ، فقال : ﴿ **اخرج منها مذءوماً مدحوراً** ﴾ والذأم أشد الذم .

قوله ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ ما فى هذه السورة جاء على القياس وتقديره : وهم كافرون بالآخرة تقدم ﴿ **بالآخرة** ﴾ تصحيحاً لفواصل الآية ، وفى هود ، لما تقدم ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ ثم قال ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ ولم يقل ﴿ **عليهم** ﴾ والقياس ذلك التبس ، أنهم هم أم غيرهم ، فكرر وقال ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم ، وليس (هم) هنا للتأكيد كما زعم بعضهم ، لأن ذلك يزاد مع الألف واللام ملفوظاً أو مقدراً .

قوله ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح** ﴾ هنا ، وفى الروم بلفظ المستقبل ، وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله ﴿ **وادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾ وهما يكونان فى المستقبل لا غير ، فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله ، وفى الروم قبله . ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ فجاء بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله ، وأما فى الفرقان فإن قبله ﴿ **كيف مد الظل** ﴾ وهو الذى جعل لكم (ومرج وخلق) وكان الماضى أليق به ، وفى فاطر مبنى على أول السورة ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا** ﴾

وهما بمعنى الماضى فبنى على ذلك ﴿ **أرسل** ﴾ بلفظ الماضى ليكون الكل على مقتضى اللفظ الذى خص به .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً** ﴾ هنا بغير واو ، وفى هود والمؤمنين ﴿ **ولقد** ﴾ بالواو ، لأنه لم يتقدم فى هذه السورة ذكر رسول ، فيكون هذا عطفاً عليه ، بل هو استئناف كلام ، وفى هود تقدم ذكر الرسل مرات ، وفى المؤمنين تقدم ذكر نوح ضمنا ، لقوله ﴿ **وعلى الفلك تحملون** ﴾ لأنه أول من صنع الفلك ، فعطف فى السورتين بالواو .

قوله ﴿ **أبلغكم** ﴾ فى قصة نوح وهود بلفظ المستقبل ، وفى قصة صالح وشعيب ﴿ **أبلغتكم** ﴾ بلفظ الماضى لأن (ما) فى قصة نوح وهود وقع فى ابتداء الرسالة و(ما) فى قصة صالح وشعيب وقع فى آخر الرسالة ، ودنو العذاب .

قوله ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ وفى يونس ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك** ﴾ لأن أنجينا ونجينا للتعدى ، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة ، وكان فى يونس ﴿ **ومن معه** ﴾ ولفظ ﴿ **من** ﴾ يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ **الذين** ﴾ لأن ﴿ **من** ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ، بخلاف الذين ، فإنه لجمع المذكر فحسب ، وكان التشديد مع (من) أليق .

قوله : ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ وفى هود ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ لأن فى هذه السورة بالغ فى الوعظ فبالغ فى الوعيد ، فقال ﴿ **عذاب أليم** ﴾ وفى هود لما اتصل بقوله ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ وصفه بالقرب فقال ﴿ **عذاب قريب** ﴾ وزاد فى الشعراء ذكر اليوم لأن قبله : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ والتقدير لها شرب يوم معلوم فختم الآية بذكر اليوم فقال عذاب يوم عظيم .

قوله ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم** ﴾ على الوحدة .

وقال ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ حيث ذكر الرجفة وهى الزلزلة ، وَحّد الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة . فاتصل كل واحد بما هو لائق به .

قوله : ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ فى هذه السورة وفى غيرها ﴿ **من الجبال** ﴾ لأن (ما) فى هذه السورة تقدّمه ﴿ **من سهولها قصوراً** ﴾ فاكتفى بذلك .

قوله ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ وفى غيرها ﴿ **فساء مطر المنذرين** ﴾ لأن ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ قوله : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة** ﴾ بالاستفهام . وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإنكار ، وقال بعده ﴿ **أئنكم لتأتون** ﴾ فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقريع والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر ، ومثله

فى النمل ﴿ **أتأتون** ﴾ وبعده ﴿ **أئنكم** ﴾ وخالف فى العنكبوت فقال ﴿ **أئنكم لتأتون الفاحشة** ﴾ ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال** ﴾ فجمع بين أئن وأئن وذلك لموافقة آخر القصة فإن فى الآخر ﴿ **إنا منجوك** ﴾ وإنا منزلون فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج .

قوله : ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ هنا بلفظ الاسم وفى النمل ﴿ **قوم تجهلون** ﴾ بلفظ الفعل ، لأن كل إسراف جهل وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرءوس الآيات المتقدمة ، وكلها أسماء للعالمين ، الناصحين ، المرسلين ، جاثمين،كافرون ، مؤمنون ، مفسدون ، وفى النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : تبصرون يتقون يعلمون .

قوله : ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ بالواو فى هذه السورة وفى سائر السور (فما) بالفاء لأن ما قبله اسم والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال . فقال فى النمل ﴿ **تجهلون فما كان** ﴾ وكذلك فى العنكبوت ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان** ﴾ وفى هذه السورة ﴿ **مسرفون وما كان** ﴾ وقال ﴿ **أخرجوهم من قريتكم** ﴾ فى هذه السورة وفى النمل ﴿ **أخرجوا آل لوط** ﴾ ما فى هذه السورة كناية فسرها ما فى السورة التى بعدها وهى النمل ويقال : نزلت النمل أولافصرح فى الأولى وكنَّى فى الثانية .

قوله ﴿ **كانت من الغابرين** ﴾ ههنا وفى النمل ﴿ **قدرناها من الغابرين** ﴾ أى كانت فى علم الله من الغابرين .

قوله ﴿ **كذلك يطبع الله** ﴾ وفى يونس ﴿ **نطبع** ﴾ بالنون لأن هذه السورة قد تقدم ذكر الله سبحانه بالتصريح والكناية فجمع بينهما .

فقال : ﴿ **ونطبع على قلوبهم** ﴾ بالنون . وختم الآية بالتصريح فقال ﴿ **كذلك يطبع الله** ﴾ وأما فى يونس فمبنى على ما قبله من قوله ﴿ **فنجيناه** ﴾ ﴿ **وجعلناهم** ﴾ ﴿ **ثم بعثنا** ﴾ بلفظ الجمع فختم بمثله فقال ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ .

قوله ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **قال للملأ حوله** ﴾ لأن التقدير فى هذه الآية : قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعضهم لبعض . فحذف ﴿ **فرعون** ﴾ لاشتمال الملأ من قوم فرعون على اسمه كما قال ﴿ **وأغرقنا آل فرعون** ﴾ أى آل فرعون وفرعون فحذف ﴿ **فرعون** ﴾ لأن آل فرعون اشتمل على اسمه فالقائل هو فرعون نفسه ، بدليل الجواب وهو ﴿ **أرجه** ﴾ بلفظ التوحيد والملأ هم المقول لهم إذ ليس فى الآية مخاطبون بقوله : ﴿ **يخرجكم من أرضكم** ﴾ غيرهم فتأمل فيه فإنه برهان للقرآن شاف .

قوله : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **من أرضكم بسحره** ﴾ لأن الآية الأولى فى هذه السورة بنيت على الاقتصار ﴿ **وليس** ﴾ كذلك الآية الثانية ولأن لفظ الساحر يدل على السحر قوله ﴿ **وأرسل** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **وابعث** ﴾ لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعاً من العلو لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ليعلم أن المخاطب به فرعون

دون غيره .

قوله ﴿ **بكل ساحر عليم** ﴾ وفى الشعراء بكل ﴿ **سحار** ﴾ لأنه راعى ما قبله فى هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ وراعى فى الشعراء الإمام فإن فيه ﴿ **بكل سحار** ﴾ بالألف وقرئ فى هذه السورة ﴿ **بكل سحار** ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة ، وموافقة لما فى الشعراء .

قوله ﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون** ﴾ لأن القياس فى هذه السورة وجاء السحرة فرعون وقالوا أو فقالوا لابد من ذلك لكن أضمر فيه ﴿ **فلما** ﴾ فحسن حذف الواو .

وخص هذه السورة بإضمار ﴿ **فلما** ﴾ لأن ما فى هذه السورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق ، وأما تقديم فرعون وتأخيره فى الشعراء ، لأن التقدير فيهما فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون ، فأظهر الأول فى هذه السورة لأنها الأولى ، وأظهر الثانى فى الشعراء لأنها الثانية .

قوله ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **إذا لمن المقربين** ﴾ ﴿ **إذا** ﴾ فى هذه السورة مضمرة مقدرة لأن ﴿ **إذا** ﴾ جزاء ، ومعناه إن غلبتم قربتكم ، ورفعت منزلتكم ، وخص هذه السورة بالإضمار اختصاراً . قوله : ﴿ **إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ وفى طه : ﴿ **وإما أن نكون أول من ألقى** ﴾ راعى فى السورتين أواخر الآى ومثله ﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ فى السورتين وفى طه ﴿ **سجداً** ﴾ وفى السورتين أيضا ﴿ **آمنا برب العالمين** ﴾ وفى طه ﴿ **رب العالمين** ﴾ وفى السورتين ﴿ **رب موسى وهارون** ﴾ وفى طه ﴿ **رب هارون وموسى** ﴾ وفى هذه السورة ﴿ **فسوف تعلمون لأقطعن** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **فلسوف تعلمون لأقطعن** ﴾ وفى طه ﴿ **فلأقطعن** ﴾ وفى السورتين ﴿ **ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ وفى طه ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ .

وهذا كله لمراعاة فواصل الآى ، لأنها فرعية يبنى عليها مسائل كثيرة .

قوله ﴿ **آمنتم به** ﴾ وفى السورتين : ﴿ **آمنتم له** ﴾ لأن هنا يعود إلى رب العالمين وهو المؤمن ﴿ **به** ﴾ سبحانه وفى السورتين يعود إلى موسى لقوله ﴿ **إنه لكبيركم** ﴾ وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد .

قوله ﴿ **قال فرعون** ﴾ وفى السورتين ﴿ **قال آمنتم** ﴾ لأن هذه السورة مقدمة على السورتين ، فصرح فى الأولى وكنى ، فى الأخرين ، وهو القياس وقال الإمام لأن (ما) هنا بعد عن ذكر فرعون فصرح وقرب فى السورتين ذكره فكنى .

قوله ﴿ **ثم لأصلبنكم** ﴾ وفى السورتين ﴿ **ولأصلبنكم** ﴾ لأن (ثم) يدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع وإذا دل فى الأولى علم فى غيرها ولأن الواو يصلح لما يصلح له (ثم) قوله ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ بزيادة ﴿ **لا ضير** ﴾ لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة وأشيعت فى الشعراء ، وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله ﴿ **ألم نربك فينا وليداً** ﴾ وختم بقوله ثم ﴿ **أغرقنا الآخرين** ﴾ فلهذا وقع زوائد لم تقع فى الأعراف وطه

فتأمل تعرف إعجاز التنزيل .

قوله ﴿ **يسومونكم سوء العذاب يقتلون** ﴾ بغير واو على البدل .

قوله ﴿ **لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله** ﴾ هنا وفى يونس : ﴿ **قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله** ﴾ لأن أكثر ما جاء فى القرآن من لفظ الضر والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضر ، لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا ، ثم طمعاً فى ثوابه ثانياً يقويه قوله : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ .

وحيث تقدم النفع تقدم لسابقه لفظ تضمن نفعاً ، وذلك فى ثمانية مواضع : ثلاثة منها بلفظ الاسم ، وهى ههنا ، والرعد ، وسبأ . وخمسة بلفظ الفعل وهى فى : الأنعام ﴿ **مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ وفى آخر يونس ﴿ **مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ وفى الأنبياء ﴿ **مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم** ﴾ وفى الفرقان ﴿ **مالا ينفعهم ولا يضرهم** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ أما فى هذه السورة فقد تقدمه ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل** ﴾ فقدم الهداية على الضلالة .

وبعد ذلك ﴿ **لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء** ﴾ فقدم الخير على السوء ، فكذلك قدم النفع على الضر ، وفى الرعد ﴿ **طوعاً وكرهاً** ﴾ فقدم الطوع وفى سبأ ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ فقدم البسط ، وفى يونس قدم الضر على الأصل ، ولموافقته ما قبلها ﴿ **لا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ وفيها ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر** ﴾ متكرر فى الآية ثلاث مرات .

وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقه معنى يتضمن فعلاً ، أما سورة الأنعام ففيها ﴿ **ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها** ﴾ ثم وصلها بقوله ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ وفى يونس تقدمه قوله ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾ ثم قال ﴿ **ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ وفى الأنبياء تقدمه قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم** ﴾ وفى الفرقان تقدمه قوله ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ وعد نعماً جمة فى الآيات ، ثم قال ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم** ﴾ تأمل فإنه برهان ساطع للقرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

المفردات : ﴿ **المص** ﴾ : هذه حروف تكتب كأنها كلمة ، وعند القراءة تقرأ هكذا : ألف لام ميم ، صاد وهى كغيرها مما افتتح به سورة البقرة وآل عمران .

ويراد بها الإشارة إلى أن هذا الكتاب الكريم معجز ، فقد نزل بهذه الحروف وما شابهها من حروف الهجاء ، وقد تحدى القرآن فصحاء العرب الذى يتكلمون بهذه الحروف ، تحداهم أن يأتوا بحديث مثله فعجزوا ، أو بعشر سور فعجزوا ، أو بسورة فعجزوا . قال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين۞فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[١] . ﴿ **حرج** ﴾ : ضيق وألم . ﴿ **ذكرى** ﴾ تذكر نافع وموعظة حسنة .

﴿ **كتاب أنزل اليك** ﴾ هذا خبر فيه تشريف للكتاب ، إذ أن الذى أنزله هو رب الأرباب ، مالك الملك وملك الملوك ، كما أن فيه تشريفاً لمن أنزل الله عليه الكتاب ، وهو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، الرجل الذى علم المتعلمين ، وبعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى بر النجاة وشاطىء الأمان إلى طريق الله رب العالمين ، هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور التوحيد والهدى ، لترتفع بالبشرية من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء .

فلا يكن فى صدرك أى حرج من تبليغه . وهذا تثبيت لفؤاد المصطفى ﷺ ، فإنه لاقى الكثير والكثير من الأذى ، وعناد المعاندين فى سبيل تبليغ الدعوة . قال تعالى ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٢] .

وقال عز من قائل : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ﴾[٣] .

وقال تبارك وتعالى ﴿ ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون۞فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين۞ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٤] .

وقال عظمت حكمته ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ۞ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٥] .

وقد أنزل الله هذا الكتاب على هذا النبى المصطفى مبيناً أنه للإنذار والذكرى قال ﴿ **لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾[٦] وفى الإنذار تخويف وترهيب ، وللذكرى طمأنينة وترغيب ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[٧] وبين الترهيب والترغيب تؤتى الموعظة ثمرتها والهدف المنشود منها .

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٢ من سورة هود .
(٤) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الحجر .
(٥) الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢ من سورة الأعراف .
(٧) الآية ٥٥ من سورة الذاريات .

ثم وجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى البشرية جمعاء فقال ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون** ﴾ .

قال ﷺ « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »[١] .

وقال « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ثم تلا قوله تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٢] .

روى الترمذى بسنده عن الحارث الأعور عن على قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم قيل : فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم »[١] .

قال الله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ أى لاتتجاوزواهذا الذى أنزل إليكم من ربكم ، ولا تفارقوه ، بل التزموه بالاتباع والتنفيذ ، ولا تأخذوا تشريعكم وأحكامكم من غيره ، مهما كانت ولايته ، سواء كان من طواغيت الجن والشياطين ، أم من جبابرة البشر ، فلا حكم ولا تشريع إلا من الله ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل ، فالولاية الحق لله وحده ، والسلطان الحق لله وحده ، والتشريع الحق لله وحده .

﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له** ﴾[٤] .

وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام دينا ، وقد ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا .

﴿ **قليلاً ما تذكرون** ﴾ أى قليلاً تذكركم ، وكثيراً ما تغفلون ، وقليلاً ما تشكرون ، وكثيرا ما تجحدون ، وقليلا ما تؤمنون ، والله غالب على أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٢٢ ، ٢٣) .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٤٢) .

(٣) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن (١) . والترمذى فى ثواب القرآن (١٤) .

(٤) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

عاقبة الظالمين

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝

المفردات : ﴿ **كم** ﴾ : كلمة وضعت للتكثير . ﴿ **قرية** ﴾ : هى مكان اجتماع الناس وقيل تطلق على الناس أنفسهم . ﴿ **بياتا** ﴾ : ليلا والمراد الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة . ﴿ **بأسنا** ﴾ : عذابنا وهلاكنا . ﴿ **قائلون** ﴾ : من القيلولة وهى استراحة وسط النهار والمراد نائمون فى الظهيرة . ﴿ **دعواهم** ﴾ : دعاؤهم وقولهم .

يقول الله تعالى ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[1] وكقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين۝وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3] .

وقوله ﴿ **فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون** ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أى ليلا ، أو هم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ، ولهو ، كما قال ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا و هم نائمون ۝ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾[4] وقال : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ۝ أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ۝ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾[5] .

وقوله ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ أى فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين : فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ۝ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ۝ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ۝ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾[6] .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآيات ٤٥ – ٤٧ من سورة النحل .
(٦) الآيات ١١ – ١٥ من سورة الأنبياء .

عاقبة الكفر فى الآخرة

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ كقوله: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾[1] وقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾[2] .

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال على عن بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ قال عما بلغوا .

عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ﴾[3] .

قوله تعالى ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ .

قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

﴿ **وما كنا غائبين** ﴾ يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[4] .

قوله تعالى ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة القصص .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى فى الجمعة (١١) وفى الجنائز (٣٢) وفى الاستقراض (٢٠) وفى الوصايا (٩) وفى العتق (١٧ ، ١٩) وفى النكاح (٨١ ، ٩٠) وفى الأحكام (١) . وأخرجه مسلم فى الإمارة (٢٠) . وأبو داود فى الإمارة (١ ، ١٣) . والترمذى فى الجهاد (٢٧) . والإمام أحمد فى (٢ : ٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١) .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

يقول تعالى ﴿ **والوزن** ﴾ أى للأعمال يوم القيامة ﴿ **الحق** ﴾ أى لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية ﴾[٣] .

قال تعالى: ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[٤] .

قال العلماء : والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضا ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »[٥] .

ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : « من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك »[٦] .

وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر: « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح »[٧] .

وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله « فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان » قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة »[٨] رواه الترمذى .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضه »[٩] ثم قرأ: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآيات ٦ — ١١ من سورة القارعة .
(٤) الآيات ١٠١ — ١٠٣ من سورة المؤمنون .
(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين (٢٥٢ ، ٢٥٣) . والترمذى فى ثواب القرآن (٥) . والدارمى فى فضائل القرآن (١٥) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٧٣) وفى (٥ : ٢٤٩) وفى (٥ : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦١) .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٥٢) .
(٧) أخرجه مسلم فى الألفاظ (٢٠) . وأبو داود فى الترجيل (٦) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٠) وفى (٤ : ٢٨٧) .
(٨) أخرجه الترمذى فى الإيمان (١٧) . وابن ماجه فى الزهد (٣٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢١٣) .
(٩) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١٨ : ٦) ومسلم فى المنافقين (١٨) .

وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد »[1].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

من نعم الله تعالى على عباده

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

المفردات ﴿ **مكناكم** ﴾ : من التمكين أى التمليك وقيل جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوأونها . وتتمكنون من الإقامة بها .

﴿ **معايش** ﴾ : جمع معيشة وهى ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب .

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أى مكاسب ، وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، كقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[2] .

آدم والملائكة وإبليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **فاهبط** ﴾ : الهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه وهو إما حسى أو معنوى . ﴿ **أن تتكبر** ﴾ : أن تجعل نفسك أكبر مما هى عليه . ﴿ **الصاغرين** ﴾ : الصغار الذلة

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٢١) . وفى (٥ : ١٣١)
(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

والهوان . ﴿ **انظرنى** ﴾ : أمهلنى . ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ : فبما أوقعتنى فى الغواية وهى ضد الرشاد . ﴿ **مذءوماً** ﴾ : معيباً من ذأم الشىء عابه . ﴿ **مدحوراً** ﴾ : مطروداً مبعداً .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أى أردنا خلقكم وقدرنا ذلك فى العلم الأزلى ، فخلقنا المادة التى أنشأكم الله فيها ، ثم صورناها ، وقد يكون المراد ولقد خلقنا أباكم آدم من طين ، ثم صورناه بعد ذلك ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا ، وإنما خاطب الله الذرية بما أنعم به على أبيهم ، لأن تكريم الأب تكريم لهم كما قال تعالى لبنى إسرائيل المعاصرين لسيد المرسلين ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (١) .

ومعلوم أن هذه النعم قد أنعم الله بها على أجدادهم ، فذكر الله بها الأشياء ، لأن نعم الآباء والأجداد نعمة على الأبناء .

ولقد أمر الله تعالى الملائكة وكان إبليس بينهم ، ولم يكن منهم ، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ، ولم يكن سجود عباده ، لأنه لا معبود إلا الله ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال له مولانا تبارك وتعالى : ما منعك ألا تسجد أى ما حملك على عدم السجود وقد تكون (لا) فى قوله جل شأنه ما منعك ألا تسجد مزيدة للتوكيد ، أى ما منعك من السجود ، وهو المقصود هنا ، لقد أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

﴿ **قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وزعم أن المخلوق بعنصره وجحد أن الفضل للأتقى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٢) .

فالمخلوق لا ترجع أفضليته إلى عنصره ، فالعناصر ليست الميزان فى التكريم ، فحق عليه غضب الله وسخطه ، قال ﴿ **فاهبط منها** ﴾ أى اخرج من زمرة الملائكة ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فإن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فاخرج إنك من الصاغرين الأذلاء ، ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ أى أخرنى ، قال ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ أى من المؤخرين . ﴿ **قال فبما أغويتنى** ﴾ أى بما أوقعتنى فى الغواية ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ وذلك للإغواء .

﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى من الأمام والوراء ، فمن ذهب منهم ليفعل الخير وقفت له فى طريقه بالمرصاد ، ومن ذهب ليقترف المعصية دفعته إليها دفعاً ﴿ **وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ أسد باب الطاعة ، وأفتح باب الغواية ، لكنه لعنه الله لم يستطع أن يأتينا من فوقنا ، أو تحتنا ، ذلك لأن جهة الفوق تنزل منها الرحمات ، وجهة التحت مكان السجود ، فإذا سجد ابن آدم اعتزل

---

(١) الآية ٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

الشيطان يبكي يقول : « يا ويلي أمر ابن ادم بالسجود فسجد فدخل الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فدخلت النار » .

لذا حذر الله بني آدم من هذا العدو اللدود ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ أي من الجن والإنس . ممن كفر وعصى ، ومذءوماً بمعنى معيباً ، ومدحوراً بمعنى مطروداً ، كما قال تعالى ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾[٣] وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[٤] .

وقد شاءت حكمته أن رحمته وسعت كل شيء ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[٥] .

قال إبليس لرب العزة ، ﴿ **لأغوينهم** ﴾ ما دامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني .

سبحان من علم الغيوب ووصفه ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى كرما فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا أنت الإله المنعم الفتاح

أهل ذكرك،أهل عبادتك،أهل طاعتك،أهل محبتك، أهل شكرك،أهل زيادتك ، أهل معصيتك لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، فإنك تحب التوابين وتحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنت طبيبهم ، تبتليهم بالمصائب لتطهرهم من الذنوب والمعايب . الحسنة عندك بعشرة أمثالها ، وتزيد والسيئة بمثلها ، وتعفو ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها .

آدم في الجنة

وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ٦٠ – ٦٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٣٥ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .
(٥) الآية ٨٢ من سورة طه

إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ **فوسوس** ﴾ : الوسوسة الصوت الخفى المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة ، والمراد هنا ما يجدونه من الخواطر التى تزين ما يضر . ﴿ **ماوُورى** ﴾ : ما ستر وغطى . ﴿ **من سوءاتهما** ﴾ : السوءة ما يسوء الإنسان ويؤلم ، فإذا قيل سوأة الإنسان كان المراد عورته لأنه يسوؤه ظهورها . ﴿ **وقاسمها** ﴾ : أقسم لهما بجد ونشاط . ﴿ **فدلاهما** ﴾ حطهما عن منزلتهما من الجنة . ﴿ **ذاقا الشجرة** ﴾ أكلا منها . ﴿ **وطفقا** ﴾ أخذا وشرعا . ﴿ **بغرور** ﴾ : الغرور الخداع بالباطل . ﴿ **يخصفان** ﴾ : يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة .

إذا كانت قصة آدم قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فليس ذلك تكراراً ، إنما قصص القرآن كثمار الجنة ، كلما رزق أهل الجنة منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، فإذا كانت ثمار الجنة قد تشابهت إلا أنها قد تنوعت فى طعومها وروائحها ، وإذا كانت القصة فى القرآن قد ذكرت فى مواضع شتى ، فليس ذلك من باب التكرار ، إنما كل قصة فى موضعها لها مغزاها ومبناها ومعناها ، ولها فائدتها المستقلة ، ولها مكانتها من طبقات البلاغة الرفيعة العالية ..

ولما كان آدم نموذجا للبشرية التى عمرت الأرض ، فإن الله تعالى قد أجرى على يديه شئونا كان لابد منها لتكون امتداداً منه لذريته ، فالله جلت قدرته أسجد له الملائكة تكريما له وتفضيلا .. قيل لبلال ابن رباح : « ابن من أنت يا بلال ؟ فقال : أن ابن الذى أسجد الله له الملائكة » .

وإذا كان إبليس قد أبى أن يسجد ، ففى ذلك درس لبنى آدم ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1] .

وبعد قصة السجود أدخله الله الجنة مع زوجه ليكون لبنى آدم فى ذلك عبرة ، يعلمون منها أن الزواج سنة المرسلين ، وأنه شركة مساهمة رأس مالها المودة والرحمة ، وأنه آية من آيات الله ، وإن تعجب فعجب أن تأتى آية الزواج بين الآيات الكونية ، كأن الزواج سنة من سنن الكون لا يستقيم بدونها ، ولا يقوم بعيدا عنها ..

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .

فقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] : إذا تأملت موقع هذه الآية الكريمة لرأيت أنها سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[٢] فإذا ما تأملت لحاقها وجدته قول الله جلت قدرته : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم * إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾[٣] .

فهذه آية الزواج وهذا سياقها ، وذاك لحاقها ، كأنها سنة مركوزة فى سنن الكون ، لذلك جاء التعبير القرآنى صريحا واضحا : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ ولقد أسكن الله آدم الجنة لتشتاق نفسه إليها بعد أن يعيش فيها ، فيمتد هذا الشوق إلى قلوب أبنائه فيعملون أعمالا تقربهم إليها . ولقد نهاه الله عن قرب الشجرة ليمتد ذلك التكليف إلى أبنائه . ولقد نسى آدم فنسى أبناؤه ، ولقد أكل من الشجرة فأذنب أبناؤه ، ولقد تاب ليتوب أبناؤه .

قال ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »[٤].

ولقد وسوس الشيطان لآدم فوسوس لأبنائه ، ولقد تاب آدم فتاب الله عليه ، وهذه رحمة من الله تعالى بآدم وأبنائه إن هم تابوا وأنابوا : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا * إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٥] ، ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ سواء أكانت هذه الجنة دار الجزاء ، أم كانت جنة بربوة فوق الأرض ، فليست العبرة فى حقيقة الجنة ، إنما العبرة كامنة فيما حدث فى تلك الجنة ، نعم إنه لا طائل من الخلاف فى حقيقة تلك الجنة التى أدخل الله فيها آدم : أهى الجنة التى أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ أم هى جنة خاصة بآدم ؟

ثم إنه لا طائل من البحث عن نوع تلك الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه أن يقرباها ، إذ لو كان فى تعيينها خير لعينها الله ، كما عين الشجرة التى أمرت مريم أن تهزها فقال : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾[٧] . ولقد سبق فى علم الله الأزلى أن آدم وأبناءه سيعمرون الأرض : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[٨] . وفى سورة الأعراف ، وقبل أن يحدثنا القرآن عن قصة آدم نقرأ قوله

---

(١) الآية ٢١ من سورة الروم . (٢) الآية ٢٠ من سورة الروم . (٣) الآية ٢٢ من سورة الروم .
(٤) أخرجه الترمذى فى القيامة (٤٩) . وابن ماجه فى الزهد (٣٠) . والدارمى فى الرقاق (١٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٩٨) .
(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٦) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الفرقان . (٧) الآية ٢٥ من سورة مريم .
(٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ﴾[١] .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يمر آدم بتلك المواقع : يدخل الجنة ، ويوسوس له الشيطان ، ويأكل من الشجرة ، ويتوب الله عليه ، ويهبط إلى الأرض ، ويتناسل ، وتأتى كلمة الله الفاصلة ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ .

إن الوساوس التى يلقيها الشيطان فى نفس ابن آدم أشد من وقع السهام على الأكباد ، ولها دبيب كدبيب النمل ، ولا يشترط أن يكون إبليس قد دخل الجنة ليوسوس لآدم ، بل إنه يستطيع ذلك دون أن يدخلها ، بل يستطيع أن يكلمه عن بعد ، وأبناء آدم يجب أن يكونوا على حذر من هذا ، وخير لهم أن يعلموا قول رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[٣] .

وإذا وسوس الشيطان فإنه يأتى الإنسان من مأمنه ، لذا فقد جاء لآدم من نفس المأمن ﴿ **مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ أى مانهاكما عن الأكل منها إلا لهذا الغرض ، فقد نهاكما حتى لا تكون لكما صفة الملائكة من شدة وقوة وطول الأجل ، وحتى لا تكونا خالدين كما قال سبحانه فى سورة طه ﴿ فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[٤] .

فالشيطان يعرف أن الإنسان يحب التملك والخلود ، فالله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، وجرت عادة الناس فيها أن من عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيداً لها ، فكل بنى آدم إلا ما رحم ربى يحبون الخلود فى الدنيا ولو كان طعامها زقوما وهواؤها سموما ، وماؤها آسنا .

ثم أراد الشيطان أن يقنع آدم بما يقول فأقسم بالله إنه من الناصحين لهما . قال تعالى : ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ . ولم يكن آدم يعرف أن هناك من تبلغ به الجرأة فيقسم بالله كاذبا . وكان أحد الصالحين يقول : « من خدعنا بالله انخدعنا به » (ورأى المسيح ابن مريم لصا يسرق فسأله : ما دعاك إلى هذا ، فقال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح : صدقت وكذبت عيناى تعظيما ليمين الله) .

قوله تعالى : ﴿ **فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٥ من سورة الأعراف .

(٣) أخرجه البخارى فى الأحكام (٢١) وفى بدء الخلق (١١) وفى الاعتكاف (١١ ، ١٢) . وأخرجه أبو داود فى الصوم (٧٨) وفى السنة (١٧) وفى الأدب (٨١) . وأخرجه ابن ماجه فى الصيام (٦٥) . والدارمى فى الرقاق (٦٦) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩) وفى (٦ : ٣٣٧) .

(٤) الآية ١٢٠ من سورة طه .

ما كان آدم ليتصور أن أحدا من خلق الله يعرض يمين الله للكذب ، لذلك بذل إبليس أقصى جهده فى سبيل أن يدفع آدم إلى الأكل من الشجرة ، فاستعمل سلاح القسم .

فدلاهما (أى أهبطهما) بغرور وخداع خبيث ، فأكلا من الشجرة . ولما ذاقاها بدا لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما . والسوءة كل ما يسوء الإنسان النظر إليه ويراد بها هنا (العورة) وهكذا من سار فى طاعة الله ألبسه الله ثيابا تقيه من عوادى الشيطان ، ومن تاب إلى الله ستره الله .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى   تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وليس صحيحاً ما يقال إن المقصود بالشجرة التى أكل منها آدم شجرة الجنس ، فمن قال بذلك فقد قال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فألفاظ القرآن عربية تفسر بالقواعد العربية ، واللفظ إما حقيقة أو مجاز ، ولا يمكن أن يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، بشرط أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى . وبشرط أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز ، فإذا قلت : سمعت أسدا يخطب ، فإن الحقيقة هنا متعذرة إذ الخطابة مستحيلة فى حق الأسد . إذن فالأسد هنا مجاز عن الخطيب الشجاع ، وبينه وبين الخطيب علاقة هى التشابه فى الشجاعة ، هكذا تقرر قواعد اللغة التى نزل بها القرآن الكريم بلسان عربى مبين .

فأين القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلى فى قوله تعالى ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ . وفى قوله جل شأنه : ﴿ **فلما ذاقا الشجرة** ﴾ . وأين العلاقة التى بين الحقيقة والمجاز ؟ إن الشجرة هنا هى الشجرة بوضعها الحقيقى ، لا صلة له بما يقوله الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويحملون الألفاظ مالا تحتمل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، اللهم إنه لا علاقة ولا قرينة فلا مجاز ، إنما الشجرة لفظ استعمل فيما وضع له فهو على حقيقته .

إن آدم وحواء لما بدت لهما سوءاتهما طفقا وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة . أى يضعان ورقة فوق ورقة ، لأن ستر السوءات من نداء الفطرة السليمة .

وناداهما ربهما قائلا ومذكرا : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ بقولى لكما : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ ألم ﴿ **أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ .

ولقد شعر آدم وحواء بنار الندم وبوخزها الأليم ، فأقرا واعترفا وتابا وأنابا وتضرعا إلى مالك الملك وملك الملوك ﴿ **قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .. وكانت هذه كلمات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

﴿ **قال اهبطوا** ﴾ : (أى إلى الأرض التى كتب الله لكم أن تعمروها) والمقصود بالخطاب هنا آدم وحواء وإبليس بعضكم لبعض عدو . وعداوة الشيطان لابن آدم فى غنى عن البيان .

﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . وغير بعيد عنا ما سبق ذكره فى قوله تعالى : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم*ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] .

ولقد شاءت الحكمة الإلهية العليا أن يظل هذا الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الوقت المعلوم ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[2] .

وشاءت حكمة الله أن يكون لآدم وذريته مستقر فى الأرض ومتاع إلى حين ﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ كما قال جلت حكمته : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[3] .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

توجيه وتحذير

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) ﴾

المفردات : ﴿ **الريش** ﴾ : لباس الحاجة والزينة . ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ : ما يلبس من الطاعة فيكون كالثياب التى تقى صاحبها من الوقوع فى مخالفات وذنوب . ﴿ **والفتنة** ﴾ : الابتلاء والاختبار من قولهم فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النّضار . ﴿ **والقبيل** ﴾ : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

جاءت هاتان الآيتان بعد ذكر قصة آدم فكانتا بمثابة الدرس والعبرة ، ولابد لكل قصة من عبرة ودرس ، فقد امتن الله تعالى على البشرية بأنه أنزل عليها لباسا يوارى السوءة ويستر العورة ، وهذه نعمة لا نستطيع أن نوفى الله شكرها . لكن حسبنا أن نقول : اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، نحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

---

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٩٠ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٥٥ من سورة طه .

إذا كان إبليس بوساوسه قد دلى آدم وحواء بغرور منه فبدت لهما سوآتهما . فإن الله جلت قدرته قد أنزل علينا من الثياب ما نوارى به سوءاتنا . والتعبير بـ ﴿ **أنزلنا** ﴾ يفيد أن مصدر الإنعام والإكرام وأن ولى النعم هو الله ، وأن الخير بين يديه والشر ليس إليه .

ومع اللباس الذى يستر الأجسام والعورات أنزل ريشا وهو ثياب الزينة التى فيها حسن وجمال ، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا »[1] .

وخير من لباس الزينة لباس التقوى : فالتقوى هى السلاح الأقوى ، فإذا كان اللباس يستر الأبدان ويقيها شر الحر والبرد ، فإن لباس التقوى هو ثياب القلوب يقيها وساوس الشيطان ونوازع النفس إلى مسالك الشر .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى   تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه   ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ **ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** ﴾ أى ذلك الذى تقدم ذكره من إنزال الثياب والرياش آية من آيات الله عليكم ونعمة من نعمه التى لا تحصى ، لعلهم يذكرون : فجل جلال الله خيره إلى العباد نازل وشرهم إليه صاعد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[2] .

قال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » .

قوله تعالى : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما** ﴾ .

بعد أن أرشد الله تعالى عباده إلى أن يتخذوا من اللباس ما يوارى سوءاتهم وكان ذلك الإرشاد امتنانا منه سبحانه وتعالى وتكرما ، حذر الله بعد ذلك بنى آدم من الوقوع فى شراك الشيطان ومصايده ومكايده وشباكه . فقال : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان** ﴾ وللشيطان فتن يوقع ابن آدم فيها فيشغله بذلك عن ذكر الله ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾[3] .

وللشيطان مداخل جاء النهى عنها فى قوله جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ وبين عاقبة ذلك فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[4] .
ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من أهداف الشيطان أن ينزع عن ابن آدم نعمة اللباس ليريه سوءته وفى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٤) .
(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ٣٨ من سورة النساء .
(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

ذلك دليل على أن الإنسان مفطور ومجبول على ستر سوءته فهذا أمر فطرى ، لكن البشرية لما انحرفت عن طريق ربها وسلكت النفوس إلى نوازع الشر بدلت نعمة الله كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . نزعت لباسها الذى أنزل الله لها فتعّرت من الفضائل ، وما أجمل تعبير القرآن الكريم ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾[(١)] .

ففى التعبير بالانسلاخ ما يفيد التشويه ، فقد كانت الآيات تزين صاحبها وتكسوه ثوب الجمال والجلال والكمال ، فلما تركها وانفصل عنها أصبح شائها قبيحا ، كذلك يفعل الشيطان مع ابن آدم عندما ينزع عنه لباسه فتبدو سوءته ، وقد كان ﷺ يدعو الله فيقول : اللهم استرعوراتنا وآمن روعاتنا .

فانظر كيف قرن ستر العورة بالأمن من الروعات . بل قدم الستر على الأمن ، لتعلم البشرية جمعاء أن الستر نعمة من أجل النعم ، ويوم تفقد البشرية هذه النعمة ، فقد انخرطت فى سلك العجماوات . بل إن هناك من الحيوانات أنواعا أبت أن تواقع إناثها إلا بعيدا عن عيون الرقباء ، فما أحوج ابن آدم إلى أن يسلك طريق الله ، إن للشيطان مكايد ، ولتلك المكايد عواقب وبعد هذه العواقب تدمير وهلاك . فكم قوّض من أمم عندما احترقت بنار الشهوات ..

﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ والعدو الذى لا يرى أشد خطرا وأشد تنكيلا من العدو الذى يرى قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

إن الشيطان بمكايده قد يصل بالإنسان إلى مرحلة هى غاية فى الذلة ، فيزين له القبيح فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[(٢)] وقال جل شأنه : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[(٣)] ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[(٤)]. ذلك لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، وأن الطيور على أشكالها تقع . ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[(٥)] . وقال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾[(٦)] . وقال جل شأنه : ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾[(٧)] .

وهناك حزبان : حزب الرحمن وحزب الشيطان ولكل منهما أولياء وتابعون.قال الله تعالى مخبرا عن حزب الرحمن : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم

(١) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٣) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٢٦ من سورة النور .
(٧) الاية ١١٩ ــ ١٢١ من سورة النساء .

أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ . وقال جل شأنه مخبرا عن حزب الشيطان : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[1] وقد يصل الشيطان بالإنسان إلى مرحلة يصبح الإنسان فيها أستاذا فى الغواية يقول أحدهم :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

وقد بين الله عز وجل حال ذلك الذى انسلخ من الآيات بأنه أصبح متبوعا والشيطان تابعا فقال : ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان فاللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال .

افتراء على الله

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

المفردات : ﴿ **الفاحشة** ﴾ الفعلة المتناهية فى القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عُراة كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون : لا نطوف ببيت ربنا فى ثياب عصيناه بها . ﴿ **والقسط** ﴾ : الاعتدال فى جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط . ﴿ **وإقامة الشيء** ﴾ : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط . ﴿ **والوجه** ﴾ : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما فى قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[2] وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما فى قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾[3] .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن هناك من اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فجعلهم الله تعالى أولياء للذين لا يؤمنون ، ذكر هنا صورة من صور أولياء الشيطان وما أكثرها فقال : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ لقد كان يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء فإذا سئلوا عن ذلك قالوا : ما كان ينبغى لنا أن نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، وهذا القول كما يقولون عذر أقبح من

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .
(٢) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

الذنب . فإذا ما نصحهم الناصحون ، ووجههم أهل المعرفة ، قالوا : وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ثم يزيدون الأمر كذبا وبهتانا فيقولون : والله أمرنا بها . فجاء الرد والجواب : ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ .

وفى هذا الاستفهام توبيخ وتبكيت وتقريع ، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير علم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فمن أظلم من افترى على الله كذباً ، ومن أشد ضلالا ممن قال على الله ما لم يقله ؟ ومن أعظم جرما ممن يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا * أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾[(١)] .

إن شر ما ابتليت به البشرية التقليد الأعمى : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[(٢)] .

فكيف طوعت لهؤلاء أنفسهم أن يسندوا فعل الفاحشة إلى أمر الله ؟ إن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[(٣)] . ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم ﴾[(٤)] .

إن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والفحشاء تنافى الفطرة وتجافيها ، فإذا ما انحرفت الأهواء بالنفوس حادت عن طريق الجادة وتنكبت الصراط السوى ، لذلك قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن الإسلام جلال وكمال وجمال وهو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، دعا الناس إلى ما يسعدهم ونهاهم عما يضرهم ، قال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[(٥)] .

إن العمل الصالح من أخص خصائص الفطرة السوية ، وإنه ليكسب صاحبه الحياة الطيبة فى الدنيا والأجر الحسن فى الآخرة ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[(٦)] .

---

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .
(٢) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل .
(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .
(٦) الآية ٩٧ من سورة النحل .

إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ . لقد ظلـوا فى جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجسام وفى طوافهم يصفرون ويصفقون ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلامكاء وتصدية ﴾[١] أى صفيراً وتصفيقاً ، ظلوا كذلك إلى أن نزل صدر سورة براءة وفيه يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ .

ولما حج أبو بكر رضى الله عنه بالمسلمين بالعام التاسع وكان هو الأمير على الحجيج ، ولحق به على ابن أبى طالب يحمل معه صدر سورة براءة أخذ على يبلغ المشركين فى مكة وأعلن فى صراحة وحزم أن لن يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة كافر ، وبإعلان تلك المبادىء وانتهاء مدة الهدنة التى حددها الله تعالى بأربعة أشهر فى قوله : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾[٢] بعد هذا كله علموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فدخلوا الإسلام أفواجا ، فصنعهم الإسلام على عينيه وأحاطهم بالعناية والرعاية ثم أنشأهم خلقا آخر ، فجعل منهم قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم ، وصنع منهم زعماء للبشر بعد أن كانوا عبادا للحجر .

ولما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع لم يكن بينهم من يدعو غير الله ، بل كانوا جميعا يهتفون « بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » . وارتفعت الحناجر تشق أجواز الفضاء : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وتغيرت الحال غير الحال ، فطافوا بالبيت برداء وإزار ، وأقاموا وجوههم عند كل مسجد عابدين لله وحده حنفاء مخلصين له الدين ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾[٣] . وهذا هو القسط والاعتدال وإخلاص العبودية لله .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما ... فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ : أى كما خلقكم أول مرة تعودون يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾[٤] . وكقوله جل شأنه : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾[٥] .

والناس فى العودة فريقان قال تعالى ﴿ **فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ . فمن اتبع هدى

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(٣) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

الله وسار على صراطه المستقيم وأخلص له الدين يعود يوم القيامة فى زمرة السعداء ، فلا يضل ولا يشقى ومن يعش عن ذكر الرحمن ويعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ويعود فى الآخرة كما قال الله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(١) ذلك لأنه حقت عليه الضلالة ، وما حقت عليهم الضلالة إلا أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .

والشياطين هنا تشمل شياطين الإنس والجن ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾(٢) . لقد اتخذوهم أولياء فأحلوا لهم وحرموا ، وزينوا لهم القبيح فرأوه حسنا ، فظلموا عباد الله وأضلوهم . ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا * وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾(٣) .

وقمة المأساة وذورة الضلال أن يسىء الإنسان ويحسب أنه على هدى قال تعالى : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ **قل** هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ﴾(٤) .

بيان وإرشاد

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

نداء من الله تبارك وتعالى إلى بنى آدم الذين من الله عليهم بإنزال اللباس الذى يوارى السوءات واللباس الذى هو الزينة والجمال ، الذى سماه القرآن الكريم ريشاً ، نداء كريم من رب عظيم ، أمرهم فيه سبحانه أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد والمسجد هو كل مكان يسجد فيه لله رب العالمين ، كما تفيد اللغة . وسواء أكان الأمر بأخذ الزينة عند الصلاة أو عند قصد المسجد ، فإن ذلك أمر مرغوب فيه ، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال ، فما بالك إذا كان التجمل لله وفى أسمى المواطن ، وقد شرع الله الغسل ،

(١) الآية ١٢٤ من سورة طه .
(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٢٧ – ٣١ من سورة الفرقان .
(٤) الآيات ١٠٣ – ١٠٦ من سورة الكهف .

وأمر بالتجمل والنظافة [فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره] [١] كما جاء فى الحديث القدسى .

وإن من سمات الإسلام أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أهذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ الكبر غمط الناس وبطر الحق » [٢] .

وقد أرشد الرسول ﷺ أمته إلى أهمية النظافة فقال : « تنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يتنظفوا لنسائهم فزنت نساؤهم » .

ولما أمر الله عباده المؤمنين بأخذ الزينة عند كل مسجد أباح لهم الأكل والشرب فى غير مخيلة أو سرف ، وفى هذه الآية الكريمة جمع الله الطب كله إذ يقول : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ .

قال أحد الزنادقة لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلا من الطب فقال له العالم المسلم إن الله تعالى جمع الطب كله فى نصف آية فقال : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .

والناظر فى كتاب الله جل وعلا يجد فيه الصحة الغذائية فى مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [٤] وقوله جل وعلا : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ [٥] وقوله جل شأنه : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ .

كما يجد الصحة الوقائية فى مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ [٦] . وقوله جل جلاله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [٧] .

كما يجد الطب الاجتماعى فى قوله جل شأنه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [٨] .

كما يجد الطب النفسانى فى قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [٩] .

فهل ترك القرآن شيئا فيه مصالح العباد إلا أمر به ، أو شيئا فيه مفسدة إلا نهى عنه ألا يعلم من

(١) أخرجه مسلم فى المساجد (٢٨٢) . وابن ماجه فى الإقامة (١٩٧) . والإمام أحمد فى (٣ : ٣٩) وفى (٤ : ١٥٧) وفى (٥ : ١٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) . والترمذى فى البر (٦٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٥ ، ٤٢٧) .

(٣) الآية ١٦٨ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٧) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٨) الآية ٢١ من سورة الروم .

(٩) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

خلق وهو اللطيف الخبير . إن للإنسان دوافع فطرية لا يستغنى عنها بشر منها . اللباس والطعام والشراب . وقد جاءت هذه الثلاثة فى تلك الآية الكريمة . وللنبى ﷺ فى هذه الأمور الثلاثة أحاديث نذكرها فيما يلى :

- قال رسول الله ﷺ :« ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» [١] .
- وقال رسول الله ﷺ :« عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم» [٢] .
- وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا وألبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده »[٣]
- وقال رسول الله ﷺ : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه . حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» [٤] .
- قال رسول الله ﷺ :« إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» [٥]

قوله تعالى ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾[٦] .

والزينة ما دامت فى غير سرف أو مخيلة فإنها من الأمور المباحات التى أنعم الله بها على عباده ، وكذلك الطيبات من الرزق . فإن الله تعالى بعث نبيه ﷺ بشرع هو للأمم المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالأب الرحيم بعثه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث ، يوحد العقائد ولا يفرق القواعد وقد انساب أصحابه فى أرجاء الدنيا ينشرون العدل والحق والحرية يعملون على البناء ويقضون على معاول الهدم ، أطبوا المريض بدوائهم وأمنوا الخائف فى رحابهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم . صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ . قال إبراهيم لربه : ﴿ رب اجعل هذا بلد آمنا ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾[٧] .

وأراد إبراهيم أن يكون الرزق مقصورا على المؤمنين ، لكن الحليم الكريم سبحانه ، قال : ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾ .﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٨] فإذا كان المؤمن وغير المؤمن يأكلون فى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز (١٢) وفى اللباس (٥) . وأخرجه البخارى فى اللباس (٢٤) . وأبو داود فى الطب (١٤) وفى اللباس (١٣) . وأخرجه الترمذى فى الجنائز (١٨) . والنسائى فى الجنائز (٣٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٣٢٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣) وفى (٥ : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ – ٢٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى اللباس (٥) .

(٣) أخرجه البخارى فى اللباس (١) . والنسائى فى الزكاة (٦٦) . وابن ماجة فى اللباس (٢٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٨١ ، ١٨٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (٥٠) . والترمذى فى الزهد (٤٧) .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (٥١) .

(٦) الآية ٨٧ من سورة المائدة .

(٧) الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

(٨) الآية ٦ من سورة هود .

الدنيا من رزق الله ، فإن الطيبات من الرزق خالصة للذين آمنوا فى دار النعيم إذ أن غير المؤمنين قد حرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وما للظالمين من أنصار .

قوله جل شأنه : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى مثل هذا التفصيل الذى سبق نبين الأحكام ونوضحها توضيحا لقوم يعلمون ، فالعلم نور وضياء حبذا إذا كان علما نافعا مقترنا بالعمل الصالح ، اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع .

المحرمات

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ **الفواحش** ﴾ : واحدها فاحشة، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ، ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح . ﴿ **والإثم** ﴾ : لغة القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة . ﴿ **والبغى** ﴾ : تجاوز الحد : وقد قالوا : بغي الجرح ، إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾[1] .

لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بذلك فقال الله : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحل الله من الطيبات والرزق واللباس ما حرم ربى هذا ، وإنما حرم الفواحش وما قبح جرمها كالزنا ما ظهر منه وما بطن ، وإذاعة السوء ، وخيانة الوطن ، والخروج على الجماعة ، وهكذا كل ذنب يكون خطره جسيما ، وكذا حرم الإثم الذى يوجب الذنب ، وحرم البغى وتجاوز الحقوق وقيد البغى بغير الحق ، لأن التجاوز إذا كان للمصلحة ومع التراخى فلا شيء فيه . وحرم الإشراك بالله غيره من صنم أو وثن لم ينزل به سلطانا وحجة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾[2] .

وحرم كذلك أن تقولوا على الله مالا تعلمون أى بغير علم ولا حجة ، والقول على الله وعلى دينه يكون بتحليل حلال أو تحريم حرام بلا سند ولا حجة ، وهو القول بالرأى ، وهذا منشأ تحريم الأديان ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** ﴾[3] بل علينا ألا نتخطى أصول الدين من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذه الأصول لم تترك شيئا .

(١) الآية ٢٣ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ١١٦ من سورة النحل .

لكل أمة أجل

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **أجل** ﴾ : وقت مضروب الله أعلم به . ﴿ **ساعة** ﴾ أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

لكل أمة أجل محدود ووقت مضروب يعلمه الله سبحانه ، وتنتهى عنده، كما أن لكل شيء فى الوجود أجلا كذلك ، فلكل أمة زمان معلوم ، تكون فيه سعيدة عزيزة أو شقية ذليلة .

فعزة الأمم وسعادتها تكون بامتثال الشرع وذيوع الفضيلة .

والتمسك بأهداب الدين والمثل العليا ولها فى ذلك أجل محدود .

وشقاء الأمم وذلها يكون ببعدهم عن الفضيلة ، وذيوع الرذيلة وشيوع الغش والرشوة والفساد والإسراف والظلم والإثم والبغى ، ولها فى ذلك أجل محدود .

أما فناء الأمم وهلاكها بالإبادة لمخالفتها الشرع فانتهى ببعثه الرسول ﷺ ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[1] .

وقد جرت سنته تعالى بذلك مع جميع الأمم فنرى فى أمم الغرب أمة قوية عزيزة ، لأنها تتمسك بالفضيلة والاعتدال وعدم الإسراف ، ولها أجل محدود ما دامت متمسكة بالحق ، وبجانبها أمة ذليلة مهينة لأنها تتمسك بالرذيلة والإسراف، والأمة الإسلامية أولى بالتمسك بالمثل العليا وعدم الإسراف ومجاوزة الحد فى شيء ، وبخاصة وأن دينها يأمرها بهذا والله سبحانه وتعالى إذا قضى على أمة بالفناء فى ساعة لا تتقدم ولا تتأخر أصلا فهذا تهديد ووعيد لمن يخالف الأمر ويسير على غير هدى .

مهمة الرسول وعاقبة العمل

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يا بنى آدم إن تأتيكم رسل منكم تعرفونهم ، ويمكنكم الحكم على أعمالهم ، يقصون عليكم آياتى

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ويتابعونها آية بعد آية ، مبشرين ومنذرين ، داعين إلى الفضيلة ، ناهين عن الرذيلة ، وهذه هي مهمة الرسل قديما وحديثا ، فمن اتقى وأصلح نفسه بالعمل والنية الصادقة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا ورفضوها كبراً وعناداً واستكباراً عن الحق ، وعتوا كما فعل زعماء قريش أولئك هم أصحاب النار فيها خالدون ، وماكثون مكثا الله أعلم به .

عاقبة الكذب على الله مع ذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **اداركوا** ﴾ : تلاحقوا وادارك بعضهم بعضاً واجتمعوا . ﴿ **ضعفاً** ﴾ : هو المثل الزائد على مثله مرة أو مرات .

لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، واختلق زورا وبهتانا ، بأن حرم حلالا ، أو حلل حراماً ، أو نسب إليه ولداً أو شريكاً ، أو كذب بآياته واستكبر عنها واستهزأ بها .

أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب المكتوب ، والقدر المقدور ، فى الرزق والعمر والمتاع فى الدنيا والحظ ، حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت متوفين لهم قابضين لأرواحهم قالوا لهم : تأنيباً وتوبيخاً : أين ما كنتم تدعونهم من دون الله من الشركاء والشفعاء ، قالوا ضلوا عنا وغابوا ، لا ندرى مكانهم ، ولا نرى أثرهم ، فنحن لا نرجو منهم خيراً ولا نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم ، واعترفوا عليها بأنهم كانوا بعبادتهم ودعائهم لهم كافرين .

وهذا تحذير للكافرين الموجودين من عواقب الكفر والضلال يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك

الظالمين المكذبين بآيات الله وهم كفار العرب ادخلوا مع أمم قد سبقتكم فى الكفر ، وفى دخول النار وهم أولياؤكم من الجن والإنس .

﴿ **كلما دخلت** ﴾ جماعة ورأت ما حل بها من الخزى والنكال ﴿ **لعنت أختها** ﴾ فى الدين والملة ، إذ هى قد ضلت باتباعها ، والامتداد بكفرها حتى إذا تداركوا فى النار جميعاً . واجتمعوا قالت أخراهم فى الدخول وهم الأتباع والسفلة لأولاهم أى فى شأنهم وحقهم ، وهم السادة والزعماء قالوا مخاطبين الله ﴿ **ربنا هؤلاء** ﴾ أى السادة ﴿ **أضلونا** ﴾ وأثروا علينا فآتهم ضعفاً من عذاب النار ، لإضلالهم لنا زيادة على عذاب ضلالهم فى أنفسهم .

قال الله لهم : لكل منكم ضعف من العذاب بإضلاله فوق العذاب على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم .

وقالت أولاهم لأخراهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا من أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا ، فيقول الله لهم ذوقوا جميعاً العذاب كاملاً ، بما كنتم تكسبون

جزاء الكافرين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

المفردات : ﴿ **الجمل** ﴾ : البعير الذى طلع نابه . ﴿ **سم الخياط** ﴾ : ثقب الإبرة . ﴿ **المجرمين** ﴾ : أجرم قطع الثمرة من الشجرة ثم استعمل فى كل إفساد . ﴿ **مهاد** ﴾ : فراش . ﴿ **غواش** ﴾ : جمع غاشية وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه كاللحاف .

إن الذين كذبوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والبعث ، وعلى صدق الرسول ، مع بيانها للأحكام ولأصول الدين ، إن الذين كذبوا بها واستكبروا عنها لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ولا تصعد إليها أعمالهم ، فإنها هباء منثور لا خير فيه .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] .

---

(١) الآية رقم ١٠ من سورة فاطر .

ولا يدخلون الجنة أبدا ، فهم مطرودون من رحمة الله ، ومثل ذلك الجزاء يجزى به كل من أجرم فى حق الله ، وفى خلق نفسه ، وفى حق إخوانه من المسلمين .

لهؤلاء من نار جهنم فراش يفترشونه ، ولحاف يلتحفون به ، فهم والعياذ بالله بين طبقات جهنم ماكثون ، وهى محيطة بهم ، والله محيط بأعمالهم وبئس المصير مصيرهم ، ولا غرابة فى ذلك كذلك نجزى الظالمين .

جزاء المؤمنين

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **وسعها** ﴾ : طاقتها وما تقدم عليه حال السعة والسهولة . ﴿ **نزعنا** ﴾ : قلعنا . ﴿ **غل** ﴾ : حقد وحسد . ﴿ **أورثتموها** ﴾ : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى صاحبه .

هذا وعد ربك بالحق بعد ما أوعد الكافرين ، وهكذا نظام القرآن وعد ووعيد ، ليتميز الحق من الباطل ، والمؤمن من الكافر .

والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا العمل الصالح الذى ارتضاه ربهم لهم ، أولئك الموصوفون بما ذكر من معانى الكمال والصدق ، المشار إليهم ، المتميزون لعلو درجتهم ، هم أصحاب الجنة الملازمون لها ، وهم فيها خالدون وقد جاء قوله تعالى ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ بين العمل وجزاءه على سبيل الاعتراض ، للإشارة إلى أن هذا العمل الصالح الذى يستحق صاحبه دخول الجنة ، ليس شاقاً ولا فوق طاقة البشر ، بل هو عمل سهل فى متناول اليد ، متى حل فى قلب الإنسان نور الإيمان ، وهدى القرآن ، هم فى الجنة خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم .

وليس بينهم شر ، لأن الله نزع ما فى صدورهم من حسد وعداوة وغل وحقد ، وهكذا نعيم الجنة : أكلها دائم ، وظلها كذلك ، وفيها الأنهار تجرى من تحتهم ، فيرونها تفيض بالماء وهم فى غرفاتهم آمنون ، فيزدادون حبوراً وسروراً ، وقالوا شاكرين نعمه : الحمد لله الذى هدانا لهذا العمل حتى أخذنا ذلك الثواب ، وما كان من شأننا ولا من مقتضى تفكيرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله ، ووفقنا لاتباع الرسل .

وقالوا لما رأوا كل شيء يجرى على حسب ما أخبر به الرسل ، لقد جاءت الرسل بالحق ، وصدقنا الله وعده فى الدنيا ، وهذه الملائكة تناديهم ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[1] .

فهذه هى الجنة التى أورثتموها ، وصارت لكم كما يصير الميراث جزاء أعمالكم .

وفى الآية دليل على أن الانسان يدخل الجنة بعمله ، وفى الحديث لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته .

والمخرج من هذا أن عمل الإنسان مهما كان لا يستحق به ذلك النعيم الواسع العريض ، لولا رحمة الله وفضله ، ومن ثم قيل فى الحديث ﴿ فسددوا وقاربوا ﴾ أى لا تبالغوا . والله أعلم .

حوار بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

المفردات : ﴿ **فأذن** ﴾ :الأذان والتأذين رفع الصوت بالإعلام . ﴿ **لعنة الله** ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة مع الإهانة . ﴿ **عوجا** ﴾ : ذات عوج أى غير مستقيمة ولا مستوية . ﴿ **حجاب** ﴾ : سور بين الجنة والنار . ﴿ **الأعراف** ﴾ : جمع عرف مأخوذ من عرف الديك والفرس ويطلق على أعلى الشيء وكل مرتفع . ﴿ **بسيماهم** ﴾ : السيما والسيمياء العلامة . ﴿ **صرفت** ﴾ : حولت .

هذا فريق فى الجنة وهذا فريق فى النار ، وقد حصل بينهما حوار حكاه القرآن إظهاراً للحق ، وإعلانا عن خطر الكفر والإيمان ، وبيانا لعاقبة كل .

وما نراه الآن من مخترعات يغنينا عن الكلام فى كيفية سماع الكلام ، ورؤية الأشخاص ، مع البعد فى المكان فالله على كل شيء قدير .

نادى أصحاب الجنة قائلين يا أصحاب النار ، يا أهل الكفر والفسوق والعصيان والضلال

(١) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

والبهتان : إن الحال والشأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ولقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وصدق الله وعده ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العذاب والألم ؟

هل وجدتموه حقا ؟ قالوا : نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر ، فهذه هى النار تتميز غيظاً ، وتقول هل من مزيد ؟

فأذن مؤذن بينهم بحيث سمع صوته أصحاب النار ، وأصحاب الجنة أذن قائلا .

ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وهم الذين يصدون عن سبيل الله بغيا وعدوانا ، ويطلبونها معوجة غير مستقيمة حتى ينفر الناس منها ، ويبتعدوا عنها ، وهم بالآخرة كافرون .

وبين أهل الجنة وأهل النار سور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلى أعالى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلاً بعلامة ﴿ وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[1] .

هؤلاء الذين على الأعراف رجال موحدون ، قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم طبتم ، فنعم أجر العاملين ، وهم لم يدخلوا ، أى الجنة ، ولكنهم يطمعون فيها ، فهم بين الخوف والرجا .

وإذا صرفت أعين أصحاب الأعراف من النظر إلى أهل الجنة ، إلى النظر إلى أهل النار من غير قصد ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

حوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا حوار بين أصحاب الأعراف وبين أهل النار ، فأصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النار وقد عرفوهم بسيماهم قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[3].

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة عبس .

(٢) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٣) الآيات ٤٠ ، ٤٢ من سورة عبس .

وقال عز من قائل : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾[١].

إنهم سود الوجوه ، زرق العيون ، قال سبحانه : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقا ﴾[٢].

إن أصحاب الأعراف قد عرفوا هؤلاء الجبابرة الطغاة الظلمة بتلك العلامات ، فقالوا لهم موبِّخين : ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** ﴾ .

أى هل أغنى عنكم جمعكم شيئاً ، لقد تجمعتم ضد الحق وتعصبتم للباطل ، وحشدتم للإسلام ونبيه وأتباعه كل ما تملكون من قوة ، فجيَّشتم الجيوش ، وجمعتم الأموال ، فهل أغنى كل ذلك شيئاً : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾[٣].

وهل أغنى عنكم استكباركم عن قبول الحق ، لقد أعماكم الكبر ، ووضع على أعينكم غشاوة حتى زين الشيطان لكم سوء أعمالكم ، فرأيتم القبيح حسناً ، والضلالة هدى ، فهل أغنى جمعكم وكبركم شيئاً كلا ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله * فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه ﴾[٤].

ثم نظر أهل الأعراف إلى الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب ، وقالوا لأهل النار : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ فقد كان المستكبرون يظنون أن من حرم المال في الدنيا والجاه والقوة فسيحرم يوم القيامة من دخول الجنة ، حتى قال أحدهم وقد دخل جنته في الدنيا ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾[٥].

وكان هذا منهم جهلاً بحقائق الأمور ، لأن الله تعالى لا يعبأ بصورنا وأموالنا ، إنما بقلوبنا وأعمالنا ، قال سبحانه : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[٦].

فليس الغنى ميزاناً للعمل ، وليس الفقر ميزاناً للعمل ، إنما الميزان الصحيح هو تقوى الله ، قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[٧].

(١) الآية ٦٠ من سورة الزمر . (٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال . (٥) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة الكهف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه . (٤) الآيات ٢٥ – ٣٠ من سورة الحاقة . (٦) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٧) الآيات ١٠١ – ١٠٣ من سورة المؤمنون .

إن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً : ﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[1].

وبعد أن ينتهى هذا الحديث الموجه من أصحاب الأعراف إلى أهل النار ، يقال لأهل الأعراف : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

قال حذيفة : (إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم ، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم .

فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أنه يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : هل تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً ؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى موسى .

فيأتون موسى عليه السلام فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجيا غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى .

فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسى ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى . ثم أقول : أنا لها . ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش ، فآتى ربى عز وجل ، فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله . قط ، ثم أسجد . فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، ثم أثنى على ربى عز وجل ، ثم أخر ساجداً ، فيقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى . فأقول : ربى أمتى . فيقول: هم لك ، فلا يبقى نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، الا غبطنى بذلك المقام ، وهو المقام المحمود .

(١) الآيات ٣٢ - ٣٦ من سورة الزخرف .

فآتى بهم الجنة ، فاستفتح فيفتح لى ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال مساكين أهل الجنة »[1].

بين أصحاب النار وأصحاب الجنة

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

سأل ابن عباس أى الصدقة أفضل فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »[2].

وقد أخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وما سيكونون عليه من سوء المآل ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[3].

أنهم سينادون على أهل الجنة يسألونهم الماء والطعام ، فيقول لهم أهل الجنة : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ لقد كانوا فى الدنيا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآيات الله كذاباً ، فكان جزاؤهم أن يقال لهم ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ وأن يقال لهم : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾[4].

وأن يقال لهم : ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[5].

وأن يقال لهم : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ١٧ : ١٩) وفى الجمعة (٦٣) وفى القيامة (١٠) . والبخارى فى التوحيد (١٩ ، ٢٤ ، ٣٦) وفى الرقاق (٥١) وفى الأنبياء (٣) وفى تفسير (سورة ١٧ : ٥) . ومسلم فى الايمان (٣٢٢ ، ٣٢٧) . وأبو داود فى الجهاد (١١٤) . والنسائى فى السهو (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٧) . والدارمى فى السير (٢٨) . والامام أحمد فى (٢ : ١٧٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٢) وفى (١٥ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٣٩٣) .

(٢) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٤١) .

(٣) الآية ٢٧ من سورة يونس .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٥) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان .

غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون ﴾[١] ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[٢] ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾[٣] ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٤].

إن هؤلاء الذين حرموا نعيم الجنة ، اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فما أقاموا للدين وزناً ، ولا للشرع غبرة ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون * ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾[٥].

إن هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، جهلوا أن الدينا مزرعة للآخرة . وما الإنسان فيها إلا وديعة ، ولابد يوماً أن ترد الوديعة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فلا طمأنينة لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[٦].

وقال عز وجل : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[٧].

قوله تعالى : **﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾** .

أى يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[٨] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٩] وقوله : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[١٠] وقال تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾[١١].

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا .

وقال مجاهد : نتركهم في النار .

وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا .

وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك

---

(١) الآيات ٣٠ – ٣٧ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٥٦ من سورة الواقعة .
(٤) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات ١٠٥ – ١١١ من سورة المؤمنون .
(٦) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٢ من سورة طه .
(٩) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(١٠) الآية ١٢٦ من سورة طه .
(١١) الآية ٣٤ من سورة الجاثية .

الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى] [١] .

قيام الأدلة عليهم

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **بكتاب** ﴾ : المراد القرآن . ﴿ **فصلناه** ﴾ : بيناه أتم بيان . ﴿ **تأويله** ﴾ : ما يؤول إليه أمره أى عاقبته .

يقطع الله المعاذير على العباد ، فقد أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل إليهم كتباً ، وأمدهم بالعقل الذي يميزون به الخبيث من الطيب ، والهدى من الضلال ، فقد جاء الكتاب مفصلاً على علم لا جهل فيه ، وبيان لا خفاء فيه ، ووضوح لا لبس فيه ، جاء هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إذ هم الذين يستفيدون بما فيه ، فيترجمونه إلى عمل ، وهل الإيمان إلا ما وقر فى القلب وصدقه العمل ؟ وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن هذا الكتاب المبين جاء هادياً ، مشتملاً على النذارة والبشارة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[٢] .

لقد اهتدى به أهل الإيمان فزادهم الله هدى ، أما الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فلم ينتفعوا به ، وأعرضوا عن ذكر الله فصاروا لا ينتظرون إلا تأويل هذا الكتاب . أى ما تؤول إليه أحكامه ، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والمراد بتأويله عاقبة ما يصير إليه ، وإنما يكون ذلك يوم القيامة ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[٣] .

وذلك عندما يأتيهم اليقين ، وتصير الحقائق شاخصة أمامهم ، لا تحتمل لبساً ولا غموضاً ، فتلك هي الجنة دار المتقين ، وهذه هى النار التى كانوا بها يكذبون .

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (١٦) .
(٢) الآيتان ١، ٢ من سورة هود .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

فيقال لهم : ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾[١] عندئذ يعضون على أيديهم ندماً ، ويقولون : ﴿ **هل : لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل** ﴾ قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٢] وقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٣].

وتأتي كلمة الفصل من الحكم العدل ﴿ **قد خسروا أنفسهم** ﴾ بدخولهم النار والخلود فيها ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم وبعد الذين زعموهم شركاء وشفعاء ، ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٤].

صور من عظمة الخالق

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

المفردات : ﴿ **ربكم** ﴾ : الرب السيد المالك والمربى . ﴿ **الله** ﴾ : علم الذات الأقدس والإله هو المعبود الذى منه النفع والضر ويتقرب إليه بالعبادة والدعاء وليس للموحدين إله إلا الله . ﴿ **أيام** ﴾ : جمع يوم وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها . ﴿ **استوى** ﴾ : في اللغة بمعنى استقر ومنه استوى على الكرسي وعلى ظهر الدابة أى استقر . استوى بمعنى قصد واسْتوى بمعنى استولى وظهر والمراد يتصرف فيه بما يريد[٥]. ﴿ **العرش** ﴾ : قال الجوهرى هو سرير الملك . ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ : والعرش سقف البيت وهودج المرأة وقيل العرش الملك والسلطان ومنه ثل عرشه إذا ذهب ملكه ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : يجعل الليل كالغشاء أى يذهب نور النهار . ﴿ **حثيثاً** ﴾ : الحث والحض . بمعنى واحد وهو الإعجال والسرعة والمعنى يطلبه من غير فتور .

إن ربكم ومالك أمركم ومتولى شئونكم هو الله لا إله إلا هو ، فاعبدوه وحده ، واستعينوا به وحده ، فهو الذي خلق السموات وعوالمها ، وقدرها ، وأحكم نظامها ، وخلق الأرض ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر أقواتها ، وأحكم نظامها ، كل ذلك في ستة أيام الله أعلم بمقدارها

---

(١) الآية ١٥ من سورة الطور .

(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .

(٤) الآية من سورة الأنعام .

(٥) انظر مذهب السلف فى معنى كلمة استوى وهو المذهب الحق ولن يجوز العدول عنه انظر ص ١٨٨

وحدودها ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[١] .

ولو أراد خلقها فى لحظة لخلقها ﴿ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[٢] ولكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت فى الأمور ، وأن خلق السموات والأرض ليس بالشيء الهين ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾[٣].

وما ورد من أن الأيام الستة هي كأيام الدنيا ، وأنه بدئ الخلق يوم الأحد ، فروايات الله أعلم بها ، وأنها إسرائيليات .

إن ربكم أيها الناس جميعاً الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ودبر أمورها وحده ، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، ثم إنه تعالى قد استوى على عرشه واستقام أمره ، واستقر على هيئة الله أعلم بها ، مع البعد عن مشابهة الحوادث في شيء .

ولقد سئل مالك رضى الله عنه في ذلك فقال : الاستواء معلوم ، أى فى اللغة - والكيف - أى كيفية الاستواء - مجهول والسؤال عن هذا بدعة .

وهذا القدر كاف ، وهذا رأى الصحابة . رضى الله عنهم أجمعين ، ورأى السلف ، قبول ما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ، وترك معرفة حقيقتها إلى الله .

وأما الخلف فيؤولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه على معنى أنه يدير أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره وحكمته ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾[٤].

والله سبحانه جعل الليل يغشى النهار بظلمته ويستره بلباسه حتى يذهب نور النهار ، ليتم قوام الحياة ، فالليل للسكون ، والنهار للمعاش ، والليل يطلب النهار دائماً من غير فتور مع الإعجال والسرعة .

وخلق الشمس والقمر والنجوم التى لا يعلمها إلا الله،حالة كونها مسخرات ومذللات بأمره ، كل يدور في فلكه إلى أجل مسمى عنده . ألا له الخلق ، أى المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، فلا دخل لهذه الكواكب في شيء ، وله الأمر والنهى والتصريف والتدبير ، ليس لأحد دخل فى شيء سبحانه وتعالى عما يصفون ، وتبارك الله رب العالمين .

من آداب الدعـــاء

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا

(١) الآية ٤٧ من سورة الحج .
(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٤) الآية ٣ من سورة يونس .

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

المفردات : ﴿ **تضرعاً** ﴾ : التضرع التذلل وإظهار الخضوع . ﴿ **خُفْية** ﴾ : الخفية ضد العلانية . ﴿ **خوفاً** ﴾ : هو توقع الشر والمكروه . ﴿ **طمعاً** ﴾ : هو توقع الخير .

ادعوا ربكم الذى تعهدكم وأنعم عليكم نعمه التى لا تحصى ، وبخاصة ما مضى فى الآية السابقة . ادعوه متضرعين مبتهلين . مخلصين ، فالدعاء مخ العبادة ، ادعوه مخفين الدعاء متسترين ، فالإخفاء حسن مندوب إن لم يكنَ واجباً ، إذ هو أبعد عن الرياء والسمعة ، وأنت لم تدع غائباً أو ناسياً ، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو السميع البصير .

على أن الله مدح العبد الصالح زكريا فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾[1].

وقد كان دعاء الصحابة وعملهم في الخفاء ، إنه لا يحب المعتدين المتجاوزين الحدود المرسومة خصوصاً في الدعاء ، فمن رفع صوته للرياء ، أو بالغ في الصيغة ، أو طلب غير المشروع ، أو دعا غير الله مهما كان ، فالدعاء عبادة يجب أن يكون لله كل هذا عدم تجاوز في حدود الدعاء .

ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، بما خلق فيها ، وما هداكم إلى الانتفاع بها وتسخيرها .

والإفساد في الأرض شامل لإفساد النفوس بالقتل . والاعتداء ، وإفساد المال بالسرقة والنصب ، وإفساد الدين بالكفر والمعاصى ، وإفساد العقل بالمسكرات .

ادعوه خائفين من عقابه ، متوقعين مكروهاً من عذابه ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وادعوه طامعين في ثوابه ، مؤملين فى جزائه ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[2]

من أدلة البعث

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(١) الآية ٣ من سورة مريم .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .

المفردات : ﴿ **الرياح** ﴾ :جمع ريح ولها أسماء عند العرب وإذا جمعت كانت فى معنى الخير وإذا أفردت كانت فى معنى الشر كما فى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً ﴾[1] ﴿ **بشراً** ﴾ : مبشرات ﴿ **أقلّت** ﴾ : حملت ﴿ **البلد** ﴾ : الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء ﴿ **الثمرات** ﴾ : واحده ثمرة وهى الحمل الذى تخرجه الشجرة ﴿ **نكد** ﴾ : لا خير فيه ﴿ **نصرف** ﴾ تغير وتبدل

هذا أثر من آثار رحمة الله بالخلق ، ودليل على قدرته على البعث ، إن ربكم هو الذى يرسل الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بقدوم المطر ، والمطر رحمة من الله بالخلق ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء ، سقناه إلى بلد ميت لا ماء فيه ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به أنواع الثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، مثل الإخراج وإيجاد أنواع النبات والثمار من الأرض بعد نزول المطر ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فالله قادر على كل شيء يخرج الحى من الميت ، والميت من الحى ، فانتبهوا رجاء أن تتذكروا ، وتتعظوا ، فتؤمنوا بالبعث والحياة الآخرة .

مع هذا فهناك من ينكر البعث بعد ظهور أماراته ، لا غرابة فى ذلك ، فالناس فى الفهم والإدراك كالأرض ، منها طيبة طاهرة المعدن تخرج نباتاً حسناً ، ومنها خبيثة التربة كالأرض السبخة ، أو الحجرية ، لا تخرج نباتاً حسناً ، بل نباتها لا خير فيه ، مثل ذلك التصريف البديع يصرف الله الآيات لقوم يشكرون النعم .

قصة نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ **عذاب يوم** ﴾ : المراد به يوم القيامه ﴿ **الملأ** ﴾ :أشراف القوم ورؤساؤهم لأنهم يملأون العيون بهجة ورواء ﴿ **ضلال** ﴾الضلالة والضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ﴿ **وأنصح** ﴾ : أرشد إلى المصلحة مع حسن النية ﴿ **ذكر** ﴾ أى وعظ من ربكم ﴿ **الفلك** ﴾ : السفينة ﴿ **عمين** ﴾ : واحده عَمٍ ، وهو ذو العمى ، قيل المراد عمى البصيرة ، وقيل هو عام .

(١) الآية ١٦ من سورة فصلت .

أنهى الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة الكلام عن مظاهر القدرة والوحدانية ، ثم ختم الكلام بذكر البعث ، وأنه كالخلق الأول .

ثم قفّى على ذلك بذكر قصص الأنبياء السابقين ، وكيف لاقوا من أممهم العنت والتكذيب ، وكيف آل أمر هذه الأمم ، وفى هذا عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ ، وتسكين للنبى الكريم ﷺ ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1] ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾[2].

أقسم الله سبحانه وتعالى لأهل مكة بأنه أرسل نوحاً إلى قومه ، ونوح هو النبى الأول الذى أرسل إلى قومه ، كما ثبت فى حديث الشفاعة ، فقال : يا قوم – ويا أهلى وعشيرتى : اعبدوا الله ربكم الذى خلقكم فسواكم وعدلكم على أتم صورة ،وأكمل نظام ، هو الذى خلق لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه،سبحانه وتعالى هو المعبود بحق ، لا إلّه إلا هو ، ما لكم من إلّه غيره تدعونه وتتضرعون إليه ، آمركم بهذا لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقعه ، وشديد هوله .

قال الملأ من قومه ، وهكذا أشراف الأمم ورؤساؤهم دائما ، أعداءللهداة والمرشدين، قالوا : إنا لنراك فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا : وُد ــ سواع ــ يغوث ــ يعوق ــ نسر إن هذا لضلال مبين ظاهر .

قال نوح مجيباً لهم : ياقوم ، ليس بى ضلالة ، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله وعبادته وحده دون الآلهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، أبلغكم رسالات ربى من التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبلغكم الأحكام العامة ، من عبادات ومعاملات .

وأنصح لكم ، وأحذركم عقاب الله ، وأذكركم به : [**الدين النصيحة**] قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3].

وأعلم من الله مالا تعلمون ، ووعظى لم يكن عن جهل ، وإنذاركم عاقبة الشرك ، كل ذلك عن علم، فنصحى لكم عن علم يقينى . لا تعلمونه ، أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر ووعظ من ربكم على لسان رجل منكم ؟!

وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ، ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وكيف

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود . (٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (٤٢) . ومسلم فى الإيمان (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى البيعة (٣١ ، ٤١) . والدارمى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

يكون الرسول بشراً ولو شاء ربك لأنزل ملائكة .

ومهمتى لكم أنى أحذركم عامة الكفر ، وأنذركم بين يدى عذاب شديد ، لينذركم ، ولتتقوا عذاب يوم عظيم ، وتخشوا بسبب الإنذار هذا اليوم ، وليعدكم بالتقوى لرحمته سبحانه وتعالى التى ترجى لكل من أجاب الدعوة .

أما هؤلاء الكفار ، فقد كذبوه وأصروا على تكذيبه ، وخالفوا أمر ربهم ، ولجوا فى طغيانهم يعمهون ولم يؤمن معه إلا قليل ، وكان عاقبتهم أن نجى الله نوحاً والذين آمنوا معه برحمة منه ، فركبوا فى السفينة ، ونجوا من الغرق .

وأغرق الذين كذبوا بآيات الله ، وكفروا بها ، ولا غرابة فى ذلك فهم قوم عمون عن الهدى والرشاد ، قد طمس الله على قلوبهم ، وختم عليها وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يرون خيراً أبداً .

فاياكم ياأمة الدعوة أن تكونوا مثلهم ، وحذار ثم حذار أن تسيروا على منوالهم « **وفى سورة هود تفصيل أوسع لهذه القصة** » .

قصة هود عليه السلام

* وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ **أخاهم** ﴾ : المراد واحد منهم كما قالوا ياأخا العرب ﴿ **فى سفاهة** ﴾ : السفاهة

خفة حلم وسخافة عقل ﴿ **خلفاء** ﴾ : المراد خلفتوهم فى الأرض ﴿ **آلاء** ﴾ : واحدها ألىٌّ وهى النعمة ﴿ **رجس** ﴾ : عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ **وقع عليكم** ﴾ : حق عليكم ووجب ﴿ **غضب** ﴾ : انتقام ﴿ **أتجادلوننى** ﴾ : المجادلة المماراة والمخاصمة ﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم والمراد استئصالهم جميعاً

قال محمد ابن إسحق : هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح .

قال العلامة ابن كثير : هؤلاء هم عاد الأولى ، والذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد فى البر . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾[1] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾[2].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

قال محمد بن إسحق : عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة : (سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه ياأمير المؤمنين قال : فيه قبر هود عليه السلام) . رواه ابن جرير .

ويروى أيضاً : أنهم كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً ، وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ، ولا يجعلوا معه الٰهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ واتبعه منهم ناس وهم يسير ، يكتمون إيمانهم .

فلما عتت عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا فى الأرض الفساد . وتجبروا . وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾[3] ﴿ وقالوا يا هود ما جئتنا ببينه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[4] أى بجنون ﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى

(١) الآيات ٦-٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية ١٥ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١٢٨-١٣١ من سورة الشعراء .

(٤) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود .

وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[1] قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر .أ.هـ.

وقد بينت سورة الأحقاف ما حدث للقوم بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المطر ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، قال جل شأنه : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾[2].

ولقد بين الله تعالى بعد هذه الآيات الدرس المستفاد مما حدث ، لتكون فيه العبرة لجبابرة الأرض ، فقال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة * فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[3] .

إن قصة عاد مع نبى الله هود فيها من الدروس ما يدمر طغاة الأرض ، وحسبك أن تعلم أن عاداً غرتهم قوتهم ، وركبوا رؤوسهم ، وعشش الشيطان فى تلك الرؤوس ، فباض فيها الإلحاد ، وأفرخ فيها الجبروت ، حتى قالوا : من أشد منا قوة ، وجاء الرد من رافع السماء بلا عمد ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾[4] .

وجاء العقاب الأليم الشديد ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[5] .

وجاء العقاب ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[6] وجاء العقاب ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ﴾[7]

قوله تعالى ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ أى كما أرسلنا نوحاً إلى قومه كذلك أرسلنا هوداً إلى عاد ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلٓه غيره أفلا تتقون ﴾ .

وأى اعتراض على هذا الأمر ، أليست الكائنات كلها شاهدة بلسان الحال والمقال على وحدانية الخالق .

---

(١) الآيات من ٥٤-٥٦ من سورة هود .
(٢) الآيات ٢١-٢٥ من سورة الأحقاف .
(٣) الآية ٢٦ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ١٥ من سورة فصلت .
(٥) الآية ١٦ من سورة فصلت .
(٦) الآيات ٦-٨ من سورة الحاقة .
(٧) الآيات ١٨-٢١ من سورة القمر

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجبين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

فماذا كان جوابهم ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ هذا هو منطق الباطل ، منطق الدجل والتهريج والحمق والنزق ، وهل يرتفع صوت الباطل إلا بالجدل العقيم من السفيه فى الفريقين ،هل يتهم الآمر بالتوحيد بالسفه والتوحيد منطق الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

هل السفه فى أهل الإصلاح والحق ، إن خفة الأحلام وسخف العقول فى أهل الشرك ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[1].

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ثم هل جرموا عليه كذباًوقد عصم الله أنبياءه من الكذب من مهدهم إلى لحدهم ، قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل [صدق عبدى فيما يبلغ عنى] هل كذب الأنبياء على الخلق ، وأجرموا عليهم كذبا ، بل كان خاتمهم يلقب بالصادق الأمين ، حتى صار ذلك علما عليه ، ولكن الباطل هو الباطل ، يعربد فى عرصات الأرض ، فاذا تصدى له الحق ركب رأسه فدمره الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[2] ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾[3] ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾[4].

فماذا قال هود عليه السلام ﴿ **قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ .

هذا هو منطق الحق ينساب انسياب الماء الطهور ، وينبلج انبلاج الضوء يبدد غياهب الظلمات فى هدوء وطمأنينة ، ويمحو فلول الدجى فى ثبات وشموخ ورسوخ وبزوخ ، ليس بى سفاهة وأى سفاهة فى كلام هود ، وأنا لكم ناصح أمين أى سفه فى النصح .

إن أهل الباطل دائماً مصابون بالإفلاس الفكرى ، والجدل العقيم .

ثم يقول هود ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ أى عجب فى هذا ، وأى غرابة فى أن يكون الرسول بشرا ، إن بشريته هى المنطق السديد ، لأنه يدعو بشرا فلابد أن يكون عارفاً بدوافع البشر ، خبيراً بحاجاتهم ، ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده ﴾[5] وقال سبحانه :

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٤٩ من سورة سبأ .
(٥) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[1]

ثم ذكرهم هود بنعمة الله عليهم ، فقال ﴿ **فاذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

إن استخلافهم فى الأرض بعد قوم نوح لعبرة ، كان عليهم أن يدركوها ، وإن فى بسطة الله لهم فى الخلق والقوة لنعمة يجب أن يشكروها، وأن يذكروا تلك الآلاء ليفلحوا وينجحوا ، ولكن يأبى منطق الباطل إلا أن يلج فى عتو ونفور ، فبدلاً من أن يقولوا اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، بدلوا نعمة الله كفرا ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ .

فكان مثلهم فى ذلك كمثل القوم الذين قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2]

بدلاً من أن يقولوا : فاهدنا إليه ، فماذا كان رد هود قال ﴿ **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾ .

نعم إن هذا هو القول الفصل. فقد حق عليهم الرجس والسخط ، ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾[3] ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾[4] .

يأمرهم بتوحيد الخالق فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فى أسماء لا مسميات لها ، وما نزل الله بها من سلطان . ولا إذن ولا برهان ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[5]

لقد بال الثعلب ذات يوم على صنم كان يعبده أحدهم قبل الإسلام فوقف يتأمل صنمه وأنشد :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه	لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان يمنع نفسه	فلا خير فى رب نأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها	وآمنت بالله الذى هو غالب

وكان لابد من العاقبة ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، قال تعالى ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** ﴾ قال جل شأنه ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[6] .

(١) الآية ٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٦ من سورة غافر .
(٤) الآية ٣٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيات ٥٨ – ٦٠ من سورة هود .

نعم إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . اقرءوا إن شئتم ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1]

وهكذا طويت عاد كما يطوى البرق معصرات الغمام ، وأدرجت فى أكفان القدر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾[2].

نبكى على الدنيا وما من معشر ... جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى ... جمعوا الكنوز فما بقين وما بقوا
من ذا الذى ضاق القضاء بجيشه ... حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلال مطلق

أين من بنى وشيد ، وعمر ومجد ، أين الفراعنة الشداد ، أين ثمود وأين عاد تلك بيوتهم خاوية سكنتها الذئاب العاوية فهل يرى لهم من باقية ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾[3]

قصة صالح مع قومه عليه السلام

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود . (٢) الآيات ٦-١٤ من سورة الفجر . (٣) الآيات ٤٢-٥٢ من سورة إبراهيم .

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ **ثمود** ﴾ : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وأخوّة صالح لهم : أخوة فى النسب كأخوة هود لقومه ﴿ **آية** ﴾ : هى البينة أى المعجزة الظاهرة الدلالة ، ﴿ **واذكروا** ﴾ : أى تذكروا ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ : أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ﴿ **والأرض** ﴾ : أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿ **تنحتون** ﴾ : النحت النحر فى الشىء الصلب ﴿ **ولا تعثوا** ﴾ : العيث والعثى : الفساد ﴿ **استكبروا** ﴾ : عتوا وتكبروا ﴿ **وعقروا الناقة** ﴾ : نحروها وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل قطع قوائمها وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ﴿ **وعتوا** ﴾ : تمردوا مستكبرين ، التمرد والامتناع إما عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا :إذا أسنَّ وكبر ،وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين . ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ﴿ **الرجفة** ﴾ : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه . ورجفت الأرض : زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف ﴿ **دارهم** ﴾ دار الرجل ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لاحراك بهم ، قال أبو عبيدة:الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

كانت قبيلة ثمود من قبائل العرب البائدة وقد كانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله ، فورثوا أرضهم وديارهم . وآتاهم الله نعما كثيرة ، وأرسل إليهم صالحا نبيا فيهم يهديهم إلى الصراط السوىّ ، ولكنهم عصوا وتكبروا وكفروا ، وطالبوا صالحا بآية فبعث الله إليهم ناقة تصديقا له ولكنهم عقروها وعتوا عن أمر ربهم فقال لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، بعدها نزل عذاب الله ووعده ، ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا أثرا بعد عين ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ، وتلك عقبى الظالمين ، ومآل الفاسقين .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا

لها القدور ، فأمرهم النبى ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « أنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »[1].

وروى أيضا الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[2].

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال :« لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس [الصلاة جامعة] قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : وما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك » ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا أو سددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾

أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، كما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وهودا إلى قومه وجاء الأمر هنا بعبادة الله وحده وهو توحيد الألوهية كشأن كل نبى يبعث إلى قومه ، فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، وهو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول : لا إله إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3] وقال جلَّ شأنه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[4] .

وقال صلوات ربى وسلامه عليه : أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « **لا إله إلا الله** » .

لقد سارت مواكب التوحيد يقودها الأنبياء ، وأتباعهم. الذين رفعوا راياتهم . خفاقة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، ومشى على وجه الزمان بنورها قوم أتقياء أنقياء أعلنوها فى قوة الإيمان. وقالوا : لا إله إلا الله ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة (٥٣) وفى الأنبياء (١٧) وفى تفسير (سورة ١٥ : ٢) . وأخرجه مسلم فى الزهد (٣٨ ، ٣٩) والإمام أحمد فى (٢ :٩، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ٩١، ٩٦، ١١٣، ١١٧)

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (٥٣) وفى الأنبياء (١٧) وفى تفسير (سورة ١٥ :٢) . ومسلم فى الزهد (٤٨، ٣٩) . الإمام أحمد فى (٢: ٩، ٥٨، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ١١٣، ١١٧، ١٣٧) .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ .

البينة الحجة القاطعة ، والبرهان الساطع على صدق رسالته ، وقد طلبوا منه آية تدل على صدقه ، فكانت الآية هى الناقة التى أخبر الله عنها بقوله : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[1] .

كانت هناك بئر فى ثمود ، أمرهم نبى الله صالح أن يكون لهم شرب فى يومهم (أى نصيب من الماء) وللناقة نصيبها من الماء ، وقد روى أن اليوم الذى كان مخصصا للناقة كانوا يشربون من ألبانها ، وكان الله تعالى يسوق لهم من الألبان ما يغنيهم عن شرب الماء ، فقطع المعاذير أمامهم ، وإنما أضيفت الناقة إلى لفظ الجلالة تشريفا لها ، حتى لا يمسوها بسوء من خشية الله وتوقيره ، وليذروها تأكل فى أرض الله ، وترتع فى خيراته ، ونهاهم أن يمسوها بسوء ،وأنذرهم بالعذاب الأليم إن هم فعلوا ذلك . قال تعالى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفى آية أخرى : ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾[2] .

وذلك لأن العذاب قد وقع بعد عقرها بثلاثة أيام . وفى سورة الشعراء ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[3] لأنه كان يوما عصيبا يجعل الولدان شيبا .

ثم ذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأن النعمة تقابل بالشكر لابالجحود . قال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد * وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا * فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ .

ولقد سجَّل لهم التاريخ حذقهم ومهارتهم فى فن المعمار ، كما سجل لهم القرآن الكريم ذلك . جاء فى سورة الحجر : ﴿ ولقد كذَّب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾[4] .

كما سجل لهم القرآن الكريم ما كانوا فيه من النعيم والهناء ورغد العيش ، وأن النعيم الذى كانوا فيه كان يُلح عليهم أن يعرفوا لله فضله ويشكروا له آلاءه .

جاء فى سورة الشعراء ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فيما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾[5]

---

(١) الآيات ١٥٣-١٥٦ من سورة الشعراء . (٣) الآية ١٥٦ من سورة الشعراء . (٥) الآيات ١٤١-١٥٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٦٤ من سورة هود . (٤) الآيات ٨٠-٨٢ من سورة الحجر .

وقد اتخذ القوم من سهول الأرض قصورا يقضون فيها الصيف ، واتخذوا من الجبال بيوتا يقضون فيها أيام الشتاء ، وقطعوا الصخور ونحتوا الجبال . قال تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾(١) .

كان عليهم أن يأخذوا العبرة من عاد ، وكيف سحب التاريخ عليهم أذيال الفناء ، فأصبحت بيوتهم خاوية تنعق فوقها البوم والغربان ، بعد أن كانت مشرئبة الأعناق ، تصدح فوقها بلابل السعادة قال تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾(٢) فلما لم تأخذ ثمود العبرة من عاد أصابها مثل ما أصاب عادا . قال تعالى : ﴿ وثمود فما أبقى ﴾(٣) .

نعم كان عليهم أن يذكروا آلاء الله ويلهجوا بالثناء عليه ، قال تعالى :﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ قال موسى عليه السلام : (يارب كيف أشكرك ؟ قال تذكرنى ولا تنسانى . إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى) .

وهذا نبى الله سليمان بن داود ، لما وجد عرش بلقيس أمامه قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يستطع الغرور أن يتسوَّر عليه حصون نفسه المنيعة ، فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾(٤) .

وها هوذا خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه تُعرض عليه الجبال لتكون له ذهبا وفضة فيأبى ، ويخيره مولاه بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا فيقول يارب : « بل نبيا عبدا أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك »(٥) .

يقول صاحب البردة :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

وجلَّ جلال الله إذ يقول فى الحديث القدسى الجليل : [ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع . إذا كنت معافى فى بدنك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها](٦) .

فصلوات ربه وسلامه على نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، ورحمة عيسى ، وبساطة يحيى . ﷺ إذ يقول : « **وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس** » .

فيا إلّهى :

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها

(١) الآية ٩ من سورة الفجر .
(٢) الآية ٥٠ من سورة النجم .
(٣) الآية ٥١ من سورة النجم .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النمل .
(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد (٣٥) .
(٦) أخرجه البخارى فى التوحيد (٣٨) والحرث (٢٠) ، والإمام أحمد فى (٢ : ٢٠ ، ٥١) .

فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

لقد ذكَّرهم نبى الله صالح بنعم الله عليهم ، فقد استخلفهم من بعد عاد ، ومكَّن لهم فى الأرض ، وهيأ لهم سبل العيش ، فجعلوا من سهول الأرض قصورا ، ونحتوا من جبالها بيوتا ، ثم أمرهم بذكر الله وآلائه عليهم ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فلو كانوا ذوى ألباب راشدة ، وعقول مفكرة ، لاستجابوا لله ، وأنابوا إليه جلَّ فى علاه ، ولكن بادر الملأ الذين استكبروا من قومه ، بادروا المستضعفين الذين آمنوا بقولهم : ﴿ **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه**﴾ .

لم يكن استفهامهم على وجه الحقيقة ، أو لطلب الفهم ، إنما كان على وجه الاستهزاء والتوبيخ والتقريع ، فكان جواب المؤمنين المستضعفين : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾

جاء الجواب مفحما وجازما ، فلم يقل المؤمنون فى جوابهم : نعم نعلم أنه مرسل من ربه ، إنما كان الجواب أعم وأشمل : إنا بما أرسل به مؤمنون ، فزادوا فى الجواب زيادة تدل على تصديقهم الجازم ، وإيمانهم المطلق بكل ماأرسل به نبى الله صالح . والمستضعفون هم أتباع الرسل الذين قامت على أكتافهم الدعوات ، والذين صمدوا أمام الأحداث وتمرسوا بالشدائد ورخصت أرواحهم فى أسواق الموت ، وجادوا بالنفس إن ضنَّ الجُواد بها،فماذا كان جواب المستكبرين ؟

قالوا : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ فتأمل معى البون الشاسع والفرق البعيد بين القولين.قال المستضعفون : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ وقال المستكبرون : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ .

إنه الفرق بين الإيمان المطلق والكفر المطلق ، إنهما نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يلتقيان ﴿ ومايستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات * إن الله يسمع من يشاء وماأنت بمسمع من فى القبور ﴾[1].

ثم تأمل مدى الاستكبار عن قبول الحق إذ كان القياس أن يقول المستكبرون : ﴿ **إنا بما أرسل به كافرون** ﴾ ليكون على غرار قول المستضعفين : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ . لكنهم لم تطاوعهم أنفسهم الأمَّارة حتى يقولوا : ﴿ **إنا بما أرسل به** ﴾ فإنهم ينكرون الرسالة من أصل ولا يرضون أن يقروا بها .

ووقعت الواقعة ، ورجَّت الأرض رجًّا ، وتكهرب الجو ، ودخلت الشمس فى منطقة الكسوف ، وخسف القمر ، فأصبحت أيامهم بلا شمس ، ولياليهم بلا قمر ، ففكروا وقدروا وعبسوا وبسروا ثم أدبروا واستكبروا ، فتآمر تسعة منهم على قتل صالح وأهله ولكن يد الله كانت تعمل فى الخفاء ، فجعل تدبيرهم ، وكيدهم فى نحرهم .

(١) الآيات ١٩-٢٢ من سورة فاطر .

استمع معى إلى ما جاء فى سورة النمل ، يعبر التعبير الصادق عن هذا المشهد . قال جلّ شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم **فريقان** يختصمون * قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيَّرنابك وبمن معك قالوا طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنَّ لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * **ومكروا** مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم **وقومهم** أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾[١].

فأهلك الله هؤلاء التسعة قبل قومهم ، أما القوم فقد تآمروا على عقر الناقة وعصيان أمر الله ، ولجُّوا فى عتو ونفور ، فسلطوا أشقاهم واسمه « قدار بن سالف » فعقر الناقة ، وإنما أسند الله العقر إليهم لأنهم حرضوا على ذلك ورضوا عنه . قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث **أشقاها** فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها * ولا يخاف عقباها ﴾[٢].

لقد عقروا الناقة بعد ما كفروا بالله وخالفوا أمره . قال تعالى : ﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ وبدلا من أن يقولوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه** ﴾ قالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٣] .

لقد قالوا : ﴿ **ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ .

وتلك مواقف أهل الباطل ، عندما يركبون رءوسهم التى عشش الشيطان فيها فباض الإلحاد وأفرخ الكبر قال تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود** الناقة مبصرة ، فظلموا بها ﴾[٤].

فكان لابد من الجزاء ، قال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ . وقد جاء الإخبار عن عذابهم فى مواضع غير قليلة من القرآن ، وهذه الآية إحداها .. وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحو فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بُعداً لثمود ﴾[٥]. وفى سورة فُصِّلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[٦]. وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾[٧].

ولا تعارض بين هذه الآيات فقد رُجَّت الأرض كإنذارهم بنزول العذاب ، ثم جاءت الصيحة ، ثم أعقبتها الصاعقة ، فكانت أنواع العذاب كلها هى الطاغية التى عمتهم وشملتهم بعد صعق أرواحهم . قال تعالى : ﴿ كذَّبت ثمود بالنذر * فقالوا : أبشراً منا واحدا نتبعه إنا إذن لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر

(١) الآيات ٤٥-٥٢ من سورة النمل .
(٢) الآيات ١١-١٥ من سورة الشمس .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٥) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة هود .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٧) الآية ٥ من سورة الحاقة .

عليه من بيننا بل هو كذّاب أشر * سيعلمون غدا من الكذّاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾[1].

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان الوارث الباعث ، الواجد الماجد الواحد المحيى المميت المعز المذل ، الباسط القابض ، الرافع الخافض سبحان من أفنى ثمود فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والملك اليوم لله الواحد القهّار والأمر يومئذ لله :

ولى فى فنـاء الخلق أكبر عـبرة ... لمـن كان فى بحـر الحقيقـة راق
شخوص وأشـكال تمـر وتنقضـى ... فتفنى جميعـا والمهيمـن بـاق

يا ابن آدم :

دنيـاك سـاعات سـراع الزوال ... وإنمـا العقبى خـلـود المـآل
فهـل تبيع الخـلـد يا غافـلا ... وتشترى دنيـا المنى والضـلال

وكانت النهاية ﴿ **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ .

إنها قمة المأساة ،وذروة الملهاة ، ألايقبل الناس نصح الناصحين الأمناء ، لقد قالها صالح بعدما حُمَّ القضاء وحلَّ البلاء ، ونزل القدر المحتوم ، كما قالها الصادق المعصوم لأهل بدر من طغاة المشركين بعدما وُضعت جثثهم فى القليب ، فجعل يقول : « ياأبا جهل بن هشام ، ياعتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » فقال له عمر يارسول الله « **ما تكلم من أقوام قد جيفوا** » . فقال : « والذى نفسى بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون »[2] .

وفى السيرة أنه عليه السلام قال لهم : « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » .

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ﴾ أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ، ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

---

(١) الآيات ٢٣-٣١ من سورة القمر .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٦) وفى المغازى (٨) . ومسلم فى الجنة (٧٦،٧٧) . والنسائى فى الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد فى (١٣١:٢) .

لوط عليه السلام وقومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝

المفردات : ﴿ لوط ﴾ : هو لوط بن هاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، ولد فى (أورالكلدانيين) فى الطرف الشرقى من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم ﷺ إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان فى ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ،سكن لوط فى إحداها المسماة بسدوُم ، وكانت تعمل الخبائث ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك . ﴿ **لتأتون الرجال** ﴾ : مأخوذ من قولهم أتى المرأة إذا غشيها . ﴿ **من الغابرين** ﴾ : أى الباقين فى عذاب الله ، يقال غبر الشيء إذا مضى ، وغبر إذا بقى .

يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل لوطا إلى قومه فقال لهم : ﴿ **أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ثم بين جلَّ ذكره نوع تلك الفاحشة فقال : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ .

وفى سورة النمل يقول سبحانه : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾[1].

فوصفهم هنا بالجهل ، وهنا بالإسراف ، لأن الإسراف والجهل متلازمان ، فكل مسرف جاهل ، وكل جاهل مسرف .

وفى سورة العنكبوت يعدد جرائمهم المنكرة وفعالهم الشنيعة . قال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾[2] .

فهذه فعال وخصال بلغت من القبح مدى بعيدا ، ويكفى أنهم أتوا عملا لم يسبقهم به أحد من

(١) الآيتان [illegible] من سورة النمل .
(٢) الآيتان [illegible] من سورة العنكبوت .

العالمين ، وهو قلب الفطرة السليمة عن وجهها الصحيح ، بتصريف الشهوة فى غير ما وضعت له ، فقد خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى ، وشرع لهم ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم ، فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوى وغَيَّرت المنهج الربَّانى ، كان ما كان من عقاب سماوى ، فقد سمعنا بمرض سماه البعض لعنة السماء ، وهو مرض خطير استشرى كالسم فى الأحشاء والنار فى الحلفاء ، وانتشر فى الأوساط الراقية التى عُرفت بالمدنية الحديثة . انتشر فى أمريكا ودول أوربا ويسمى « الإيدز » .

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هذا المرض ، وقد جاء فيه من المعلومات عن هذا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل ما يتعلق به ، وكتبه مؤلفه د. رفعت كمال فى صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقى الضوء على أهمية الموضوع وخطورته ولم استحق آل لوط العقاب على فعلتهم تلك :

اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز فى عام ١٩٨١ ، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوالى ١٢ ألف مريض ، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف . ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أى أعراض ، وفى هذه الحالة يمكن أن تنتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل : الدماء ، السائل المنوى ، الدموع ، اللعاب . والتى يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسى، أو نقل الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم ، أو استعمال محقن واحد فى حقن شخصين ، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر .

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا التى تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها ، ويتم تدمير قدرة الجسم على مقاومة الأمراض .

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض : تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هذا التضخم لأكثر من شهر ــ ظهور أورام حمراء داكنة وتظهر فى أى مكان بالجسم ، وهى تزيد فى الحجم - حدوث نقص واضح فى وزن الجسم ، ويكون ذلك خلال شهرين - فقدان الشهية - الإحساس بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود - ارتفاع فى درجة الحرارة - العرق بغزارة خصوصا أثناء الليل - سعال جاف مصحوب بارتفاع فى درجة الحرارة - إحساس بالضيق عند التنفس ــ الإصابة بالإسهال ــ ضعف فى العضلات - ظهور بعض البثرات - ظهور بقع بيضاء فى الفم وهذه البقع تكون سميكة نوعا ما .. وتظهر على كل أجزاء الفم من الداخل .

إن العدوى فى البيت الواحد تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسى، ومن الأم الحامل إلى جنينها ، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى ..

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هى الفترة التى تبدأ من التعرض إلى العدوى ، وتنتهى مع ظهور أعراض المرض ، وهى تتراوح بين عامين وخمسة أعوام ، يكون فيها المريض قادرا على نقل العدوى للآخرين خلال هذه الفترة وقد اتضح أن ٩٠٪ من الحالات التى سجلت فى هذا المرض تنقسم إلى مجموعتين :

– المجموعة الأولى : هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسى .

– المجموعة الثانية : هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن فى الوريد حيث تستعمل مجموعة منهم حقنة واحدة فى حقن المخدر ... وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم .

إن آثار هذا المرض لا تقتصر على التأثير الصحى الضار على جسم المريض ، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة : فالناس تهرب من وجه مريض الإيدز – والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف على علاجه – وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض – حتى العاملون فى المستشفى ، إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفا من انتقال العدوى .

فالرعب من عدوى هذا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسى ، ومن لا يزاوله ، حيث أكدت استطلاعات الرأى العام فى أمريكا أن ٣٠٪ من الناس يؤكدون أن هذا المرض سيصبح وباء عالميا ، وأن الكل يبحث عن الإجراءات الوقائية التى يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة ، والخطير فى هذا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملا للعدوى .

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محددة هى الهجوم على الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم « تى ٤ » وهى نوع من الكرات البيضاء المتخصصة فى مقاومة جراثيم الأمراض ، وكذلك بعض أنواع السرطان ، وعندما يهاجم الفيروس هذه الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوى المعروف باسم دى – ان – ايه (DNA) وهو الحامل للوراثة فى نواة الخلية .

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعا من البروتين له قدرة التغلب على الخلية « تى ٤ » بحيث تكون الحصيلة هى خروج كميات كبيرة من الفيروسات فى فترة وجيزة جدا . وقد تأكد أن هذا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة ، مما ينهى حياتها فى وقت مبكر .

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى « بالإيدز » يجد أنها فى البلاد التى زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم ، ويباعدان بينها وبين منهج الله .

تقول الإحصائيات ، فى فرنسا ٣٠٠ حالة – فى ألمانيا الغربية ١٦٢ حالة – فى بريطانيا ١٨٤ حالة أما فى آسيا فإن الحالات أقل بكثير .. أما الرقم الهام الذى يكشف عن مدى انتشار الإيدز فى الولايات المتحدة الأمريكية فهو ١٢ ألف مريض ، من هؤلاء مات ستة آلاف والباقون يعانون من المرض بلا شفاء .

ولكن .. لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسيا ؟

يقول الأطباء العاملون فى هذا المجال : إن الخلية التى يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها .. وهى الخلية التى تتولى الدفاع عن الجسم .. تتراكم بكميات كبيرة بجانب المستقيم ، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذا ما هاجمه أى ميكروب يتسرب من المستقيم . ولذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب ، وخاصة هذا الشباب الذى يزاول الشذوذ الجنسى .

صدقت يا سيدى يا رسول الله فقد كنت تنظر من وراء الحجب ، وتستشف الغيوب بما أوحى الله به إليك ، فقد زكّى الله عقلك فقال : ﴿ ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ﴾[1] وزكّى لسانك فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[2] وزكى شرعك فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[3]. وزكى معلمك فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[4] وزكّى فؤادك فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[5] وزكى بصرك فقال ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[6] وزكى رسالتك فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[7] وزكّاك كلك فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[8] .

إذا كان هناك من سمىَّ « الإيدز » بلعنة السماء فقد سبقتهم يا سيدى يا رسول الله بأربعة عشر قرنا من الزمان عندما قررت تلك الحقيقة الناطقة بالحق فقلت : ﴿ لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ﴾[9].

بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من النحوس لهم حجابا
وكان جنابهم فيها مهيبا ولَلأخلاق أجدر أن تهابا

وللفقهاء فى اللواط كلمة

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم ، وهى من الفواحش المفسدة للخلق وللفطرة وللدين والدنيا ، بل وللحياة نفسها ، وقد عاقب الله عليها بأقصى عقوبة فخسف الأرض بقوم لوط ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة .

وقد أمر الرسول ﷺ بقتل فاعله ولعنه : روى أبو داود عن ابن عباس أن رسول ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به »[10] .

وروى النسائى عن ابن عباس أن رسول ﷺ قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط »[11] .

قال الشوكانى :

« وما أحق مرتكبى هذه الجريمة ، ومقارفى هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة

---

(١) الآية ٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٣ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية ٥ من سورة النجم .
(٥) الآية ١١ من سورة النجم .
(٦) الآية ١٧ من سورة النجم .
(٧) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٨) الآية ٤ من سورة القلم .
(٩) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(١٠) أخرجه الترمذى فى الحدود (٢٤) . وابن ماجه فى الحدود (١٢) . وأبو داود فى الحدود (٢٨) . والإمام أحمد فى (١:٢٦٩) .
(١١) أخرجه الإمام أحمد فى (١:٣٠٩،٣١٧) .

للمعتبرين ، ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، أن يَصْلي من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم » .

وقد شدد الإسلام فى عقوبة هذه الجريمة لآثارها السيئة وأضرارها فى الفرد والجماعة .. ومع إجماع العلماء على حرمة هذه الجريمة ، وعلى وجوب أخذ مقترفيها بالشدة إلا أنهم اختلفوا فى تقدير العقوبة المقررة لها إلى مذاهب ثلاثة :

١ – مذهب القائلين بالقتل مطلقا .

٢ – ومذهب القائلين بأن حده حد الزانى : فيجلد البكر ويرجم المحصن .

٣ – ومذهب القائلين بالتعزير .

المذهب الأول :

يرى أصحاب الرسول ﷺ ، والناصر،والقاسم بن إبراهيم والشافعى فى قول : أن حده القتل ولو كان بكراً سواء كان فاعلا أو مفعولا به . واستدلوا بما يأتى :

١ – عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

٢ – وعن على (أنه رجم من عمل هذا العمل) . أخرجه البيهقى .

قال الشافعى : وبهذا نأخذ برجم من يعمل هذا العمل محصنا كان أو غير محصن .

٣ – وعن أبى بكر : أنه جمع الناس فى حق رجل ينكح كما ينكح النساء . فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك فكان من أشدهم يومئذ قولا على بن أبى طالب عليه السلام حيث قال : « هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم ، إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار » .. أخرجه البيهقى .

المذهب الثانى :

ذهب سعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن وقتادة والنخعى ، والثورى والأوزاعى ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعى فى قول إلى أن حده حد الزانى ، فيجلد البكر ويُغرَّب ، ويرجم المحصن .

واستدلوا بما يأتى :

١ – أن هذا الفعل نوع من أنواع الزنا ، لأنه إيلاج فرج فى فرج ، فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة فى الزانى المحصن والبكر ، ويؤيد هذا حديث رسول الله ﷺ : « إذا أتى

الرجلُ الرجلَ فهما زانيان » .

٢ – أنه على فرض عدم شمول الأدلة الواردة فى عقوبة الزنا لهما ، فهما لاحقان بالزانى بطريق القياس .

المذهب الثالث :

ذهب أبو حنيفة ، والمؤيد بالله ، والمرتضى والشافعى فى قول إلى تعذير مرتكب هذه الفاحشة ، لأن الفعل ليس بزنا فلا يأخذ حكمه .. وقد رجح الشوكانى مذهب القائلين بالقتل ، وضعف المذهب الأخير لمخالفته للأدلة ، وناقش المذهب الثانى فقال : « إن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها لمرتكب جريمة قوم لوط ، ومبطلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول لأنه يصير فاسد الاعتبار ، كما تقرر فى الأصول » .

مبحث علمى فى أضرار الشذوذ الجنسى :

نقل ذلك البحث ملخصا من كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفى حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلى :

الرغبة عن المرأة :

من شأن اللواطة أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج ، وهى إيجاد النسل .. ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن ولابالمودة ولا بالرحمة التى هى دستور الحياة الزوجية ، فتقضى حياتها معذبة معلقة ، لاهى متزوجة ولا مطلقة .

التأثير فى الأعصاب :

وإن هذه العادة تغزو النفس ، وتؤثر فى الأعصاب تأثيرا خاصا : أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسى فى خلق الفرد ، فيشعر فى صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلا ، وينقلب الشعور إلى شذوذ ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسا غريبا فيشعر بميل إلى بنى جنسه ، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية .

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسى ، بل هناك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية فى الشخص كذلك ، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة ، وعلل نفسية شائنة ، تفقده لذة الحياة ، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة ، فتحيى فيه لوثات وراثية خاصة ، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة ، وتدعو إلى تسلطها عليه . ومثل هذه الآفات العصبية النفسية ، الأمراض السادية ،والماسوشية ، والفيتشزم ، وغيرها .

التأثير على المخ :

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالا كبيرا فى توازن عقل المرء ، وارتباكا عاما فى تفكيره ، وركودا غريبا فى تصوراته ، وبلاهة واضحة فى عقله ، وضعفا شديدا فى إرادته . وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التى تفرزها الغدة الدرقية ، والغدد فوق الكلى ، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثراً مباشراً ، فيضطرب عملها وتختل وظائفها . وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (النيور ستايتا) واللواط ، وارتباطا غريبا بينهما . فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد .

السويداء :

واللواط إما أن يكون سببا فى ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملا قويا على إظهاره وبعثه . ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفى لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

عدم كفاية اللواط :

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبى ، شديدة الوطأة على الجهاز العضلى ، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التى تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ، ثم قارنا ذلك بما يحدث فى اللواط وجدنا الفرق بعيدا والبون بين الحالتين شاسعا ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للوضع الشاذ .

ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه :

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببا فى تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقين دائمى التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

علاقة اللواط بالأخلاق :

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئ الخلق فاسدى الطباع ، لايكادون يميزون بين الفضائل والرذائل . ضعيفى الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم ، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسى عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التى نسمع عنها كثيرا ونطالع أخبارها فى الجرائد السيارة وفى غيرها . ونجد تفاصيل حوادثها فى المحاكم وفى كتب الطب .

اللواط وعلاقته بالصحة العامة :

واللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ، ويرزؤهم بخفقان القلب ، ويتركهم بحال من الضعف العام ، يعرضهم للإصابه بشتى الأمراض ، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب .

التاثير على أعضاء التناسل :

ويضعف اللواط كذلك مراكزالإنزال الرئيسية فى الجسم ، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه . ويؤثر على تركيب مواد المنى ثم ينتهى الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

التيفود والدوسنطاريا :

ونستطيع أن نقول : إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدسنطاريا ، وغيرهما من الأمراض الخبيثة التى تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم ، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

أمراض الزنا :

ولا يخفى أن الأمراض التى تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريقة اللواط ، وتصيب أصحابه ، فتفتك بهم فتكا ذريعا . فتبلى أجسامهم ، وتحصد أرواحهم .

مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامى فى تحريم اللواط وتظهر دقة أحكامه فى التنكيل بمقترفيه ، والأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

بماذا أجاب القوم

لقد كان الجواب يدعو إلى الأسى ، وما كان ينبغى منهم أن يقابلوا النصيحة بالإعراض والدعوة إلى النجاة بالفظاظة والغلظة .

إنه الباطل إذا أفلس يختلق ، ويدَّعى ، ويعربد ، ولا أساس له من الحق ، ولا نصيب له من الصدق ، قال تعالى :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

فأعجب معى هل التطهر صار تهمة ؟ هل النقاء أضحى جريمة ؟ هل العفة أصبحت جناية ؟ إنهم يختلقون ويهرفون بما لا يعرفون ، ومثلهم فى ذلك كمثل القائل الذى يمدح قوماً ويصفهم بالشجاعة فيقول :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

سبحانك ربى هل أصبح النقاء والسمو الخلقى والتحلى بالفضيلة تهماً يلام عليها صاحبها ، إذاً لابد من

كلمة فصل تحكم هذا الصراع بين الحق والباطل ، بين السمو إلى علياء الطهر والارتكاس فى حمأة الرذيلة ، وهل يملك كلمة الفصل إلا رافع السماء بلا عمد .

إن الباطل سيظل يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يعربد إلا فى غفلة أهل الحق ، وسيظل كذلك حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وجاءت كلمة الفصل قال تعالى ﴿ **فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أى من الباقين فى العذاب فقد خانت الله ورسوله ، لذلك استحقت هذا الجزاء .

لقد رجموا بالحجارة التى أشبهت المطر الغزير المدرار ، حتى جاء التعبير القرآنى غاية فى البلاغة عندما شبه الحجارة وكثرتها بالمطر الغزير ، قال تعالى ﴿ **فأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين** ﴾[1]

ولهؤلاء القوم قصة فصلها العلى الحكيم فى سورة هود ، فبعد أن نزلت الملائكة بالبشرى على إبراهيم توجهوا بعد ذلك إلى نبى الله لوط لينزلوا العذاب بالقوم ، فالملائكة رحمة بالصالحين ، كما أنهم ينزلون بالنقمة على أعداء الله الفاسقين ، ولننتقل إلى سورة هود لنستمع إلى تفصيل هذا المشهد قال سبحانه :

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جآء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[2].

شعيب عليه السلام وقومه

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

(١) الآية ١٧٣ من سورة الشعراء . (٢) الآيات ٧٤-٨٣ من سورة هود .

وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

المفردات : ﴿ **يقال بخسه حقه** ﴾ : أى نقصه . ﴿ **الإفساد** ﴾ : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل وإفساد الأخلاق والآداب بارتكاب الإثم والفواحش . وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران ، المحسنة لأحوال المعيشة . ﴿ **والصراط** ﴾ : الطريق . ﴿ **توعدون** ﴾ : تخوّفون الناس . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ﴿ **فكثّركم** ﴾ : أى بما بارك فى نسلكم .

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل مدين نبياً كريماً هو شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فإذا كان نبى الله لوط قد بعث إلى قوم انحرفوا بمجتمعهم إلى الحضيض ، والدرك الأسفل ، فأفسدوا فطرة الله عندما أتوا الذكران من العالمين ، فإن نبى الله شعيبا عليه السلام قد بعث لقوم طغى عليهم المال ، فطففوا المكيال والميزان .

وإذا كان المال عصب الحياة ، فإن الأنبياء بعثوا ليعلموا الناس الحلال والحرام ، بعد أن يأمروهم بتوحيد الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالاً والحلال خير كله ، والحرام شر كله :

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾[١]

والمال إذا كان من الحلال يصير نعمة ينعم الله بها على عباده ، نعم المال الصالح للعبد الصالح ، فإذا دخله الحرام صار نقمة على صاحبه ، فإنه لا تزول قدمك من بين يدى الله عز وجل حتى تسأل عن أربع : شبابك فيم أبليته ، وعمرك فيم أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته . وفيم أنفقته ، وعلمك ماذا صنعت فيه .

وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه،هو من هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان الرسول يقول عنه:(هذا خالى فليرنى امرؤ خاله) قال سعد : يارسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة قال له : (ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف باللقمة الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاء ، ولا يقبل منه عمل أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به)[٢].

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة المائدة . (٢) أخرجه البخارى فى الأذان (٩٥) . ومسلم فى المساقاة (١٣٨) . والدارمى فى الرقاق (٦٠) .

وقد كانت الزوجات الصالحات يقلن لأزواجهن كلمة ليت نساءنا يعرفنها ، كانت المرأة تقول لزوجها سعيا وراء لقمة العيش : يافلان اتق الله فينا،ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما   فإنه الركن إن خانتك أركان

ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة ، أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، أو كثر المال ، إنما السعادة فى غنى النفس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

سمع أحد الصالحين فى مجلسه رجلا يقول : اللهم ارض عنى . فقيل له : لو رضيت عن الله لرضى عنك . قال : فيكف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم ترضى بالنقمة رضاك بالنعمة ، فقد رضيت عن الله .

ولست أرى السعادة جمع مال   ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً   وعند الله للأتقى يد
وإدراك الذى يأتى قريب   ولكن الذى يمضى بعيد

لقد عرض نبى الله شعيب على قومه المنهج الربانى العظيم ، قال ياقوم:اعبدوا الله مالكم من إله غيره

ومن مبدأ التوحيد والعقيدة يكون المنطلق إلى التشريع والتوجيه ، فمن عبد الله وحده فقد عرفه ، ومن عرف الله فقد اتقاه ، ومن اتقى الله فقد خاف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضى بالقليل ،وأعد الزاد ليوم الرحيل .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فى من كان لله عاصيا

يقول شعيب بعد ذلك لقومه : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم** ﴾ أى لقد قامت الحجج والبراهين على صدق وعصمتى من الكذب ، فأوفوا الكيل والميزان ، فإن المعاملة هى الركن العظيم فى الدين ، لذا قال أحدهم : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، ومرافقوه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه ، وفى الإيفاء وفاء ، والوفاء فضيلة .

ثم نهاهم عن البخس فقال ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ أى لاتنقصوهم حقهم ، فإن البخس

ضرب من ضروب الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، فالحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم وإذا دام دمر ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(١) ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾(٢) .

ثم ينهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فيقول ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾

وهذا محور الارتكاز لكل مجتمع فالإفساد له صور كثيرة ، فالظلم إفساد ، والرشوة إفساد ، والربا وسفك الدماء وهتك الأعراض والاعتداء على الناس إفساد .

ثم يقدم النصح فى صورة كريمة فيقول ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل : ليته ما نهى .

إنه نداء الفطرة ومنطق الحق المبين فإذا كان الإفساد شراً كله فإن الإصلاح خير كله ، وقد جاء ذلك مفصلا فى سورة هود قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط * وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٣) .

وفى سورة الشعراء يقول تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾(٤)

وفى سورة الأعراف ينهاهم شعيب عن قطع الطريق على الناس ، فإن للطريق حقا ، بينه السيد الجليل محمد ﷺ فى قوله: « فإن أبيتم إلا الجلوس فى الطرقات فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وماحق الطريق يارسول الله ؟ قال كف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغض البصر »(٥)

يقول لهم شعيب ﴿ **ولاتقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٣) الآيات ٨٤-٨٦ من سورة هود .

(٤) الآيات ١٧٦-١٨٤ من سورة الشعراء .

(٥) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٢) . ومسلم فى اللباس (١١٤) وفى السلام (٣،٢) . والإمام أحمد فى (٣:٣٦،٤٧) .

أى تخوفون الناس وتهددونهم ، ﴿ **تصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا** ﴾ أى تريدون الدعوة إلى الله معوجة بعد استقامتها ، بصد الناس عنها وتهديدهم وتخويفهم منها .

ثم يذكرهم بنعم الله عليهم فيقول ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم** ﴾ والكثرة فيها قوة ، وهى نعمة ، ثم يحذرهم من عاقبة المفسدين من الأمم السابقة التى أهلكها الله فيقول ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

وفى سورة هود يقول : ﴿ وياقوم لايجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[1]

وفى سورة الأعراف يقول لهم بعدما عانى من عنادهم وصبرعلى إيذائهم ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾

حتى الأمر بالصبر لم يمتثلوا له ولم يرضوا به ، إن الرسل لما قالوا لهم﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[2] قال لهم أهل الضلال والبهتان والظلم والطغيان ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾[3] .

انتهى الجزء الثامن ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء التاسع مبدوءا بقوله تعالى :

*قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

(١) الآيتان ٨٩، ٩٠ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢ من سورة إبراهيم .

(٣) الآيات ١٣-١٥ من سورة إبراهيم .